

أَسْرَارُ الْحِكْمَةِ

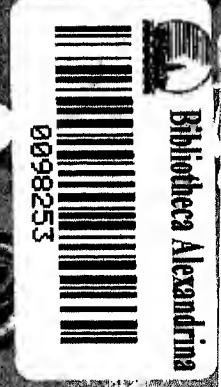
فِي مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ

تأليف: محمد حجة الأسدي
مراجعة: الأستاذ



دار ميرزا

الطبعة والمطبوعات
بمصر - القاهرة



أَسْرَارُ الْحِكْمَةِ
فِي مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ

أَسْرَارُ الْحِكْمَةِ فِي مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ

الامام حجة الاسلام
ابي حامد الغزالي

تحقيق
الاستاذ علي عباس خريس

دار ميرزا
للطباعة والنشر والتوزيع

جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المؤلف

الغزالي (١٠٥٩ م - ١١١١ م) (٤٥٠ هـ - ٥٠٥ هـ)

فقيه ومتكلم وفيلسوف ومصلح ديني وإجتماعي ، وصاحب رسالة روحية كان لها أثرها في الحياة الإسلامية .

ولد حجة الإسلام ، الإمام أبو حامد محمد الغزالي في ضاحية غزالية بمدينة طوس من أعمال خراسان .

كان والده - إلى جانب إشتغاله بغزل الصوف - يقوم بخدمة رجال الدين والفقهاء في مجالسهم ، وكانت أقصى أمانيه أن يرى أحد ولديه (محمد وأحمد) خطيباً وعالماً . ولكن الدهر لم يمهل له ليحقق أمنيته ، فمات والولدان بعد قاصران ، فتعهدهما بالتربية والعلوم الأولى صديق صوفي لأبيهما .

درس محمد العلوم الأولى في بلدته ، ثم إنتقل إلى جرجان سنة (٤٦٥ هـ - ١٠٧٣ م) طلباً للتزويد والتعمق . رحل إلى نيسابور سنة (٤٧٠ هـ - ١٠٧٨ م) وهي من مدن العلم المعروفة آنذاك ، فاتصل بإمام الحرمين أبي المعالي الجويني = علم عصره في التوحيد والإلمام بمذاهب الأشعرية وطرق الجدل والأصول والمنطق = فدرس الغزالي عليه كل هذه العلوم والمذاهب ، كما درس علوم الفلاسفة وبخاصة الفارابي وابن سينا ، وعلوم الباطنية ويسمون بأهل

التعليم لقولهم بضرورة معلم معصوم.

انتقل إلى بغداد بعد موت إستاذه الجويني (٤٧٨ هـ - ١٠٨٥ م) فاتصل بالوزير السلجوقي نظام الملك طوال خمس سنوات ظهر خلالها تفوقه في الكلام والفقه والعلوم الشرعية أثناء مناظراته الأئمة والمفكرين، فعينه الوزير أستاذاً مشرفاً على النظامية^(١) في بغداد (٤٨٤ هـ - ١٠٩١ م) وهي أشهر المدارس في عصرها.

وقع الغزالي في المرحلة الأولى بأزمة من الشك الذي كانت خطوته بدأت تتكون في نيسابور، ولكنه اجتازها بعد شهرين من القلق كان فيهما على مذهب السفسطة. إهتم بالفلسفة أثناء بحثه عن الحقيقة وألف كتابيه: مقاصد الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة.

إعتزل التدريس سنة (٤٨٨ هـ - ١٠٩٥ م) بعد أزمة نفسية عنيفة وصراع شديد تردد فيه بين شهوات الدنيا ودواعي الآخرة، وأخذ بعده بحياة التصوف، فخرج من بغداد إلى الشام، ثم إلى بيت المقدس والحجاز حيث قضى سنوات في الزهد والعبادة على طريقة المتصوفين.

حنّ إلى مسقط رأسه خاصة بعد دعوات من تلامذته، فعاد إلى طوس وعزم على الدعوة إلى الإصلاح الديني فقام يؤلف كتابه «إحياء علوم الدين». ولكنه عاد إلى التدريس في نظامية نيسابور مدة سنتين (٤٩٩ و ٥٠٠ هـ - ١١٠٥ و ١١٠٦ م) بناء على دعوة ملحة من السلطان.

إنصرف بعد ذلك إلى التصوف في مسقط رأسه طوس إلى أن وافته منيته سنة (٥٠٥ هـ - ١١١١ م).

أثاره:

له مصنفات كثيرة في شتى فروع النشاط الفكري أهمها:

(١) النظاميات هي مدارس عليا أنشأها نظام الملك وزير السلاجقة لتبث السنّة والأشعرية وتؤيد السلجوقيين - قبالة الأزهر في القاهرة الذي كان يدعو للفاطميين وبيت تعاليم الشيعة. من أشهر النظاميات: نظامية بغداد ونظامية نيسابور.

أ - في التصوف والإخلاق:

ميزان العمل، إحياء علوم الدين، الأدب في الدين، آداب الصوفية، أيها الولد، جواهر القرآن، معراج السكاكين، منهاج العابدين، مشكاة الأنوار.

ب - في العقائد والفقه والأصول:

عقيدة أهل السنة، القسطاس المستقيم، الإقتصاد في الاعتقاد، إجماع العوام عن علم الكلام، الرسالة القدسية، المستظهر (فضائح الباطنية) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة.

ج - في الفلسفة والمنطق:

مقاصد الفلاسفة، تهافت الفلاسفة معيار العلم في المنطق.

د - ترجمة حياة:

المنقذ من الضلال.

ولا بدّ من لمحة ولو سريعة على بعض مصنفاته المشهورة ليتسنى للقارىء الكريم الدخول في شخص الإمام الغزالي وفكره الديني والفلسفي لما فيه من فائدة جمّة وعلم منهجي منير.

إحياء علوم الدين:

هو من أجلّ كتب المواعظ وأعظمها. ألّفه بعد خروجه من الشك، وقد صرف في تأليفه السنوات حتى خاف أصحابه أن يقضي قبل أن يتمه، أظهره بأسلوب سهل واضح، وقسمه أربعة أقسام وسمى كل قسم ربعاً، وفيه جمع بين العلم والعمل وعرض لما يحقق الكمال ويوصل إلى السعادة. كما حدّد مفهوم الخلق وميز عناصره من معرفة وإرادة وعمل وهيئة راسخة، وأشار إلى ترابطها وضرورة الانسجام بينها، وكشف عن الأصول التي تنبثق عنها الصفات الأخلاقية ودافع عن إمكانية تهذيب الإخلاق، وبين أثر العادة والمجاهدة والرياضة النفسية في إكتساب الصفات الحميدة.

أما التعليم فيرى أن يبدأ بالقرآن الكريم وأحاديث الأخبار،
وحكايات الأبرار، ويحذر من الأشعار التي فيها ذكر العشق
وأهله.

أيها الولد:

رسالة قصيرة وضعها الغزالي في آخر أيامه ردّاً على طلب أحد تلامذته
من المشايخ، وقد شدّد فيها على عنصر العمل حسب ما يفهمه ويحقّقه
التصوف المعتدل، هذا التصوف الذي هو بنظره طريق الحق الوحيد،
وينصح فيها الناشئين ألا يطلبوا العلم لنيل أغراض الدنيا والمباهاة على
الأقران، بل أن يقصدوا إحياء الشريعة وتهذيب الأخلاق، ويذكّره بأن
العلم بلا عمل جنون والعمل بلا علم لا يكون.

ولقد ترجمتها منظمة اليونسكو إلى الإنكليزية والفرنسية.

المنقذ من الضلال:

كتاب وضعه الغزالي في أواخر حياته وبعد عودته إلى التدريس
في نيسابور سنة (٥٠٠ هـ - ١١٠٦ م). وفيه:
أولاً: ردّ الغزالي على أخ له في الدين طلب منه أن يبشّه غاية
العلوم، والمذاهب وأسرارها.
ثانياً: رغبة الغزالي في حكاية حاله وترجمة حياته الروحية وكيف
دخل في الشك وخرج منه، وما قاساه في سبيل الوصول إلى
الحق.
وانتهى فيه إلى أن الله تعالى سبب لوجود العالم، وأنه يخلقه
بإرادته وقدرته، وأنه لا توجد إلا عليّة واحدة هي عليّة الموجود
المريد، وأما عليّة الطبيعة فهو ينكرها ويردها علاقة زمانية بين
شيئين.

علم الكلام:

قال الغزالي: ثمّ إنني ابتدأت بعلم الكلام فحصلت له وطالعت كتب
المحققين منهم، وصنفت فيه ما أردت أن أصنّف، فصادفته علماً وافياً
بمقصوده غير وافٍ بمقصودي.

وقد إشتغل الغزالي ، بالكلام طوال سنوات درسا وتدريسا وتأليفاً فانتهى من ذلك إلى أن علم الكلام يستطيع أن يحفظ العقيدة على إنسان نشأ مسلماً ولقن عقيدته تلقيناً، ولكنه لا يستطيع أن يخلق حقيقة وعلماً يقيناً في إنسان نشأ خالياً عنهما، ولذلك فهو يدعو إلى منع الجمهور غير المثقف من الإطلاع على المناقشات الجدلية، ويعتبر في (الرسالة اللدنية) أن هذا العلم كوسيلة دفاع عن العقيدة هو أشرف العلوم وأجلها وأكملها، وأنه ضروري واجب تحصيله على جميع العقلاء.

وينتهي إلى الدفاع عن أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة.

ميزان العمل:

قال الغزالي في كتابه ميزان العمل: الشكوك هي الموصلة إلى الحق، فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال.

فالغزالي إذن يعتنق الشك مذهباً: فهو مقدمة لليقين وطريق إلى الحق، وليس من إيمان أثبت وأقوى من ذلك الذي يحصل بعد التشكيك ويؤدي إليه درس وإستقصاء.

آداب الصوفية:

آثر الغزالي علوم الصوفية فأنصرف إلى تحصيل علومهم من مطالعة كتبهم «للمحاسبي، والجنيد، والشبلي، والبسطامي». فظهر له أن أخص خواصهم لا يمكن الوصول إليه بالتعليم، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات، لأنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال:

فانتهى إلى أن طريق الصوفية بما فيه من علم وعمل هو الموصل إلى المعرفة اليقينية والسعادة الحقيقية ولا يتم ذلك إلا بقطع القلب عن الدنيا والإقبال على الله

مقاصد الفلاسفة:

وفي الفلسفة رأى الغزالي أن: رادّ مذهب قبل فهمه والإطلاع على

كنهه، رمي في عماية، وأنه لا يقف على فساد نوع العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوي أعلمهم فيه ويزيد عليه، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة.

تهافت الفلاسفة :

وفيه ينتقد مذاهب الفلاسفة ويكفرهم في مسائل قدم العالم، وعلم الله، وحشر الأجساد، ويدعهم في مسائل أخرى. وهم على اختلاف فرقهم ومذاهبهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام.

الدّهريون: وهم الذين يزعمون أن العالم موجود من نفسه بدون صانع وهؤلاء هم الزنادقة.

الطبيعيون: وهؤلاء أيضاً زنادقة، لأن أصل الإيمان هو: الإيمان بالله وباليوم الآخر، وهؤلاء آمنوا بالله ولكنهم أنكروا اليوم الآخر.

الآلهيون: مثل (سقراط وأفلاطون وأرسطو) وهم بجملتهم ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية والطبيعية، ولكن بقي من رذائل كفرهم وبدعهم ما يدعو إلى تكفيرهم وتكفير أتباعهم من المتفلسفة المسلمين كابن سينا والفارابي.

دافع الغزالي عن تعاليم الإسلام بحرارة وإيمان فلقب: بحجة الإسلام وزين الدين، وعالم العلماء، ووارث الأنبياء.

والغزالي لا ينكر البعث بالأجساد، إذ يرى أنه ممكن يردّ النفس إلى أي بدن من مادة البدن الأول أو من غيره أو مادة إستؤنف خلقها، فالإنسان بنفسه لا يبدنه.

والمعرفة اليقينية عند الغزالي ليست معرفة العوام ولا معرفة المتكلمين والفلاسفة ولكنها معرفة خواص الأولياء تقع في قلوبهم بلا وساطة لأنها نور يقذفه الله تعالى في قلب العبد فإذا هو يعرف الحضرة الآلية وصفاتها وأفعالها وحكماتها في خلق الدنيا والآخرة وبذلك إستطاع أن يحذق علم الصوفية ويتحقق به عملاً. وأن يدخل كثيراً من تعاليم الصوفية وأذواقهم إلى علم التوحيد السني وأن يجعل من التصوف طريقة في العبادة وطريقاً إلى المعرفة اليقينية والسعادة الحقيقية.

والقلب الذي تحصل فيه هذه المعرفة تحصل له لذة وسعادة أعظم مما.

يحصل من معرفة أي شيء آخر دون الله تعالى . وتحصل هذه السعادة عندما يتعزى الإنسان من صفات النقص ويتحلى بصفات الكمال .

وللغزالي آراء مهمة في تهذيب الأخلاق وتربية الصبيان وآداب المعلمين والمتعلمين تستحق إهتماماً كبيراً لما تتصف به من عمق النظر وسمو الهدف .

وأخيراً؛ فإن الغزالي على الرغم من نزعة الدينية والصوفية قد إعتترف بأنه لا نظام للدين إلا بنظام الدنيا، وأن أشرف الصفات بعد النبوة إفادة العلم وتهذيب نفوس الناس وإرشادهم إلى الأخلاق المحمودة، كما قال : أن العلم فضيلة في ذاته وعلى الإطلاق من غير إضافة .

قصدا بهذه المقدمة الموجزة عن الإمام الغزالي إلقاء نظرة على حياة وأعمال هذا الفيلسوف المسلم، ليتيسر للقارئ الكريم فهم شخصيته وآرائه، ومنهجه السليم في تقويم الدين، وإظهار عظمة الخالق في مخلوقاته بمنهجية واضحة سليمة .

والله ولي التوفيق

مقدمة بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي
الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾^(١)، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا
وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَخْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾^(٢).

منذ وجد الإنسان على هذه الأرض وهو مشوق إلى تعرف ما في الكون المحيط به من سنن وخصائص ومخلوقات وكواكب... وكلما أمعن في المعرفة كلما أيقن ضعفه وعجزه أمام عظمة الخالق وقدرته وأسرار مخلوقاته وعلمته الذي جلت نعمة عن الإحصاء والأعداد، خالق اللطف والإرشاد، الموفق بكرمه لطرق السداد، المخصص هذه الأمة الشريفة بعلم الإسناد.

أحمدته أبلغ حمد على نعمه خاصة على نعمة الإسلام وقرآنه العزيز كلام ربنا الذي نزل به الروح الأمين بلسان عربي مبين، وخص به أكرم السابقين واللاحقين محمد عبده ورسوله وحيبيه وخليله خاتم النبيين وسيد المرسلين.

أما بعد، فإن الإشتغال بالعلم أفضل الأعمال وأجل الطاعات وأهم أنواع العلوم علوم القرآن الكريم، كلام الله الحكيم.

(١) سورة سبأ: الآية (١)

(٢) سورة سبأ: الآية (٢).

لذلك فقد جدّ العلماء وما زالوا منذ أشرقت الأرض بنور سيد المرسلين والقرآن المبين، وهم يتلمسون نواحي العظمة الالهية ويتلمسون قدرته في خلقه، وأرضه وسماؤه وحيوانه ونباته و... ومع أنهم استطاعوا الوصول إلى شيء من المعرفة، فقد فاتهم الكثير، وأمامهم جهاد طويل وبعد شاسع وطريق لا نهاية له.

وكتاب «أسرار المخلوقات» للإمام الغزالي الذي نقدّمه اليوم للقراء الأعزاء بحلة جديدة وشرح موجز عن مؤلفه، إنما هو مرآة ناصعة تعكس عظمة الخالق وقدرته وحكمته في مخلوقاته، وترسّخ اليقين في نفوس عباده، وتقوي الإيمان في قلوب المؤمنين حتى ترى ألسنتهم تنطق وتردد:

«اللهم لك الحمد هديتنا لدين الإسلام»

وما في هذا الكتاب يدل أوضح الدلالة على شمول العلم الالهي لدقائق الوجود، وأن العلم والكشف عن سنن الوجود وعجائبه سيكون نصير الدين وسيقرب إلى العقل الإنساني فهم ما كان غامضاً مبهماً. وما كان فوق طاقة العقل إدراكه من قبل... مصداقاً لقوله تعالى:

﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا ثُمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾^(١).

ويطول بي القول إذا عرضت لما في هذا الكتاب من حسنات وبيّنات، وسيدرك المؤمنون هذا بأنفسهم ويستمتعون بلذة نتاج الفكر عند الغزالي الذي ينشلهم من ظلمة المادة ويصبرهم بنور الإيمان ويوجههم إلى النور الالهي فيدركون به سعة رحمته تعالى وعظمة مجده وقدرته. مصداقاً لقوله تعالى:

﴿سُنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ولم أجد أفضل من كلام سيد الخلق ﷺ لأختتم به كلمتي هذه إذ يقول: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل عليّ غضبك أو تحلّ عليّ سخطك لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

والله ولي التوفيق

(١) سورة البقرة: الآية (٣).

باب التفكر في خلق السماء وفي هذا العالم

قال الله تعالى :

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾^(١).

وقال تعالى سبحانه :

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾^(٢).

اعلم رحمك الله أنك إذا تأملت هذا العالم بفكرك وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج إليه فالسما مرفوعة كالسقف والأرض ممدودة كالبساط

(١) سورة ق: الآية (٦)

يقول تعالى منبهاً للعباد على قدرته العظيمة، التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا به مستبشرين لوقوعه ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ أي بالمصاييح، ﴿وما لها من فروج﴾. قال مجاهد: يعني: من شقوق، وقال غيره: فتوق، وقال غيره: صدوع، والمعنى متقارب. تفسير ابن كثير.

(٢) سورة الطلاق: الآية (١٢)

في هذه الآية الكريمة يخبرنا الله تعالى عن قدرته التامة وسلطانه العظيم كقوله تعالى . ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾؟ وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ . أي سبعة أيضاً.

والنجوم منصوبة كالمصابيح والجواهر مخزونة كالذخائر وكل شيء من ذلك معد مهياً لشأنه .

والإنسان كالمالك للبيت المخول لما فيه فضروب النبات لمآربه وأصناف الحيوانات في مصالحة فخلق سبحانه السماء وجعل سبحانه لونها أشد الألوان موافقة للأبصار وتقوية لها ولو كانت أشعة أو أنواراً لأضرت الناظر إليها فإن النظر إلى الخضرة والزرقة موافق للأبصار وتجدد النفوس عند رؤية السماء في سعتها نعيماً وراحة لا سيما إذا انفطرت^(٣) نجومها وظهر نور قمرها .

والملوك تجعل في سقوف مجالسها من النقش والزينة وما يجد الناظر إليه به راحة وإنشراحاً لكن إذا داوم الناظر إليه نظره وكرره مله وزال عنه ما كان يجده برؤيته من البهجة والإنشراح بخلاف النظر إلى السماء وزيتها فإن الناظر إليها من الملوك فمن دونهم إذا ضجروا من الأسباب المضجرة لهم يلجؤون إلى ما يشرحهم من النظر إلى السماء وسعة الفضاء .

وقد قالت الحكماء بحذوك عندك من الراحة والنعيم في دارك بمقدار ما عندك فيها من السماء .

وفيها أنها حاملة لنجومها المرصعة ولقمرها وبحركتها تسير الكواكب فيهندي بها أهل الأفاق وفيها طرق لا تزال توجد آثارها من المغرب والمشرق ولا توجد مجرة ولا مقابلة صورة نور وقيل أنها أنجم صغار متكافئة مجتمعة يهتدي بها على السير من ضل وتحيير في أي جهة كان فيقصددها وقيل أنها المشار إليها في قوله تعالى :

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾^(٤) .

قيل الحبك الطرق وقيل ذات الزينة .

(٣) انفطرت : تمايزت .

(٤) سورة الذاريات : آية (٧) .

والسماء ذات الحبك : قال ابن عباس : ذات الجمال والبهاء والحسن والإستواء ، وقال الضحاك : الرمل والزرع إذا ضربته الريح فينسخ بعضه بعضاً طرائف طرائف ، فذلك الحبك .

فهي دلائل واضحة تدل على فاعلها وصنعة محكمة صمدية^(٥) تدل على سعة علم باريها وأمور ترتيبها كل يدل على إرادة منشيها فسبحان القادر العالم المريد .
وقيل في النظر إلى السماء عشر فوائد تنقص الهم وتقلل الوسواس وتزيل وهم الخوف وتذكر بالله وتنشر في القلب التعظيم لله وتزيل الفكر الرديئة وتنفع من مرض السوداء وتسلي المشتاق وتؤنس المحبين وهي قبلة دعاء الداعين .

(٥) صمدية : دائمة ما دام الدهر .

باب في حكمة الشمس

قال الله سبحانه :

﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾^(١).

اعلم أن الله سبحانه خلق الشمس لأمر لا يستكمل علمها إلا الله وحده فالذي ظهر من حكمته فيها أن جعل حركاتها لإقامة الليل والنهار في جميع أقاليم الأرض.

ولولا ذلك لبطل أمر الدين أو لولاه كيف كان يكون الناس يسعون في معاشهم ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقدهم لذة النور ومنفعته ولولا ضياء نورها ما انتفع بالإبصار ولم تظهر الألوان.

وتأمل غروبها وغيبتها عن طلعت عليهم وما في ذلك من الحكمة ولولاه لم يكن للخلق هدوء وراحة أبدانهم وخمود حواسهم وانبعث القوة الهاضمة لهضم طعامهم وتفنيد الغذاء ثم كان الحرص يحملهم . على مداومة العمل ومطاولته على ما يعظم مكانته في أبدانهم .

(١) سورة نوح : الآية (١٦).

أي أن الله سبحانه وتعالى فاوت بين القمر والشمس في الإستنارة فحعل كلاً منها أنموذجاً على حدة ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها

فإن أكثر الحيوانات لولا دخول الليل ما هودوا ولا قروا من حرصهم على نيل ما ينتفعون به .

ثم كانت الأرض تحمي بدوام شروق الشمس واتصاله حتى يحترق كل ما عليها من الحيوانات والنباتات فهي بطلوعها في وقت وغروبها في وقت النور بمنزلة سراج لأهل بيت يستضاء به وقتاً ويغيب وقتاً ليهدوا ويقروا وهي في حرها بمنزلة النار يطبخ بها أهل الدار حتى إذا كمل طبيخهم واستغنوا عنها أخذها من جاورهم وهو يحتاج إليها فينتفع بها حتى إذا قضى حاجته سلمها لآخرين .

فهي أبداً منصرفة في منافع أهل الأرض يتضاد النور والظلمة على تضادهما متعاونين متظافرين على ما فيه صلاح العالم وقوامه وإلى هذه القضية الإشارة بقوله : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ (٢) .

ثم بتقدمها وتأخرها تستقيم الفصول فيستقيم أمر النبات والحيوان . . ثم انظر في سيرها في فلكها في مدة سنة وهي تطلع كل يوم وتغرب بسير آخر سخرها لها بتقدير خالقها .

فلولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولما عرفت المواقيت ولو انطبق الظلام على الدوام لكان فيه الهلاك لجميع الخلق فانظر كيف جعل الله الليل سكناً ولباساً والنهار معاشاً وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على الترتيب المخصوص .

وانظر إلى إمالة سير الشمس حتى اختلف بسبب ذلك الصيف والشتاء فإذا انخفضت من وسط السماء برد الهواء وظهر الشتاء وإذا استوت وسط السماء اشتد القيظ (٣) وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان فيستقيم بذلك أمر النبات والحيوان بإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة .

(٢) سورة القصص: الآية (٧١) .

يقول تعالى ممثلاً على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار للدين لا قوام لهم بدونهما، وبين أنه لو جعل الليل دائماً عليهم سرمداً إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم، ولسمته النفوس .

(٣) القيظ: الحر الشديد

وأما ما في ذلك من المصلحة ففي الشتاء تعود الحرارة في الشجر والنبات فيتولد فيها مواد الثمار ويستكثف الهواء فينشأ منه السحاب والمطر وتشتد أبدان الحيوان وتقوى أفعال الطبيعة وفي الربيع تتحرك الطبائع في المواد المتولدة في الشتاء فيطلع النبات بإذن الله وينور الشجر وتهيج أكثر الحيوانات للتناسل وفي الصيف يخمر^(٤) الهواء فينضج الثمار وينحل فضول الأبدان ويجف وجه الأرض فتهايم لما يصلح لذلك من الأعمال وفي الخريف يصفو الهواء وترتفع الأمراض ويمتد الليل فيعمل فيه بعض الأعمال وتحسن فيه الزراعة وكل ذلك يأتي على تدرج ويقدر حتى لا يكون الانتقال دفعة واحدة إلى غير ذلك مما يطول لو ذكر.

فهذا مما يدل على تدبير الحكيم العليم وسعة علمه. ثم تفكر في تنقل الشمس في هذه البروج^(٥) لإقامة دور السنة وهذا الدور هو الذي يجمع الأزمنة الأربعة الشتاء والصيف والربيع والخريف وتسير فيها على التمام وفي القدر من دوران الشمس تدرك الغلات والثمار وتنتهي غاياتها ثم تعود فتستأنف وقت السير وبمسيرتها تكمل السنة ويقوم حساب السنة على الصحة على التاريخ بتقدير الحكيم العليم.

تأمل إشراف الشمس على العالم كيف دبره تبارك وتعالى فإنها لو بزغت في موضع واحد لها لا تعدوه لما وصل شعاعها إلا إلى جهة واحدة وخلت عنها جميع الجهات فكانت الجبال والجدران تحجبها عنها فجعلها سبحانه تشرق بطلووعها أول النهار من المشرق فيعم شروقها ما يقابلها من جهة المغرب ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد أخرى حتى تنتهي إلى الغرب على ما استتر عنها أول النهار فلا يبقى موضع حتى يأخذ بقسطه منها.

ثم انظر إلى مقدار الليل والنهار كيف وقتها سبحانه على ما فيه صلاح العالم فصار بمقدار لو تجاوزه لأضر بكل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات أما

(٤) يخمر الهواء: يحدث من شدة حرارة الشمس تحول كيميائي في الهواء للمواد العضوية، فيحدث تغييراً في الثمار فتضج.

(٥) البروج: هي مجموع النجوم المعروفة بـ: الدلو - الحوت - الحمل - الثور - الجوزاء - الأسد - السرطان - العذراء - الميزان - العقرب - القوس - والجدي.

وقد تكون البروج هنا كما يراها مجاهد وقتادة منازل النجوم والكواكب السيارة.

الحيوان فكان لا يهدأ ولا يقر ما دام يجد ضوء النهار وكانت البهائم لا تمسك عن الرعي فيؤل أمرها إلى تلفها وأما النبات فتدوم عليه حرارة الشمس وتوهجها فيجف ويحترق وكذلك الليل لو امتد مقداره أيضاً لكان معيقاً لأصناف الحيوان عن الحركة والتصرف في طلب المعاش وتخدم الحرارة الطبيعية من النبات فيعفن ويفسد كالذي يحدث على النبات إذا كان الموضع لا تقع الشمس عليه .

باب في خلقة القمر والكواكب

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً﴾^(١).

اعلم وفقك الله أن الله سبحانه وتعالى لما جعل الليل لبرد الهواء وهدو الحيوان وسكونه فلم يجعله سبحانه ظلمة داجية لا ضياء فيها البتة فكان لا يمكن أن يعمل عملاً فيه وربما احتاج الناس إلى بعض أعمالهم في الليل أما لضرورة أو لضيق وقت عليهم من النهار وقد يقع ذلك لشدة حرارة أو لغيره من الأسباب .

فكان ضوء القمر في الليل من جملة ما تحتاج إليه في المعونة على ذلك فجعل طلوعه في بعض الليالي ونقص نوره عن نور الشمس وحرها لئلا يشغل الناس في العمل نشاطهم لكل ما به يتمتعون من الهدوء والقرار فيضرب ذلك بهم وجعل في الكواكب جزءاً من النور يستعان به إذا لم يكن ضوء القمر .

(١) سورة الفرقان: الآية (٦١).

يقول تعالى مجيداً نفسه ومعظماً على جميل ما خلق في السماوات من البروج وهي الكواكب العظام، وقيل هي قصور في السماء للحرس، ﴿وجعل فيها سراجاً﴾ وهي الشمس المنيرة التي هي كالسراج في الوجود. ﴿وقمراً منيراً﴾ أي مشرقاً مضيئاً بنور آخر من غير نور الشمس. تفسير ابن كثير - بتصرف.

وجعل في الكواكب زينة السماء وأنساً وانشراحاً لأهل الأرض فانظر ما أنظف هذا التدبير جعلت للظلمة دولة ومدة للحاجة إليها وجعل خلالها شيء من النور ليكمل به ما احتيج إليه .

ثم في القمر علم الشهور والسنين وهو صلاح ونعمة من الله ثم في النجوم مآرب أخرى فإن فيها دلائل وعلامات على أوقات كثيرة لعمل من الأعمال كالزراعة والغراسة والإهتداء بها في السفر في البر والبحر وأشياء مما تحدث من الأنواء والحر والبرد وبها يهتدي السيارون في ظلمة الليل وتقطع القفار الموحشة واللجج الهائلة كما قال تعالى :

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (٢) .

مع ما في تردها في السماء مقبلة ومدبرة ومشرقة ومغربة من البهجة والنضارة وفي تصريف (٣) القمر خاصة في استهلاله ومحاقه وزيادته ونقصانه واستنارته وكسوفه كل ذلك دلالات على قدرة خالقها المصرف لها هذا التصرف لإصلاح العالم .

ثم انظر دوران الفلك بهذه الكواكب في كل يوم وليلة دوراناً سريعاً وسيرها معلوم مشاهد فإننا نشاهدها طالعة وغاربة ولولا سرعة سيرها لما قطعت هذه المسافة البعيدة في أربعة وعشرين ساعة فلولا تدبير الباري سبحانه بارتفاعها حتى خفي عنا شدة سيرها في فلكها لكانت تختطف بتوهجها لسرعة حركاتها كالذي يحدث أحياناً من البروق إذا توالى في الجو فانظر لطف الباري سبحانه في تقدير سيرها في البعد البعيد لكيلا يحدث من سيرها حادث لا يحتمل فهي مقدرة في جميع الأحوال على قدر الحاجة .

وانظر في هذه التي تظهر في بعض السنة وتحتجب في بعضها مثل الثريا

(٢) سورة الأنعام . الآية (٩٧) .

قال بعض السلف : من إعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه : أن الله جعلها زينة المساء ، ورجوماً للشياطين ، ويهتدي بها في ظلمات البر والبحر . تفسير ابن كثير .

(٣) تصريف القمر : هي إختلاف رؤيته بالنسبة إلينا ، وذلك نتيجة الدوران : من هلال ومحاق وكسوف وبدر . ثم مظلم وإخفاء ليعود من جديد .

والجوزاء والشعري^(٤) فإنها لو كانت كلها تظهر في وقت واحد لم يكن لشيء منها دلالة على جهالة تعرفها الناس ويهتدون بها فكان في طلوع بعضها في وقت دون الآخر ما يدل على ما ينتفع به الناس عند طلوعه مما يصلحها ولذلك جعلت بنات نعش^(٥) ظاهرة لا تغيب لضرب من المصلحة فإنها بمنزلة الأعلام التي يهتدي بها الناس للطرق المجهولة في البر والبحر فإنها لا تغيب ولا تتوارى.

ثم انظر لو كانت واقفة لبطلت الدلالات التي تكون من تنقلات المنتقلة منها ومصيرها في كل واحد من البروج كما يستدل على أشياء تحدث في العالم بتنقل الشمس والقمر في منازلها ولو كانت منتقلة كلها لم يكن لمسيرها منازل تعرف ولا رسم يقاس عليه لأنه إنما يعرف مسير المنتقلة منها بتنقلها في البروج الدانية كما يعرف سير السائر على الأرض بالمنازل التي يجتازها فقد صار هذا الفلك شمس وقمره وبروجه تدور على هذا العالم دوراناً دائماً في الفصول الأربعة من السنة لصالح ما فيه من حيوان ونبات وغير ذلك بتقدير العزيز العليم.

ومن عظيم الحكمة خلق الأفلاك التي بها ثبات هذا العالم على نهاية من الإنقار لطول البقاء وعدم التغير فقد كفى الناس التغير في هذا الأمر الجليل الذي ليس قدرة ولا حيلة في إصلاحه لو نزل به تغير يوجب ذلك التغير أمراً في الأرض إذ قوام الأرض مرتبط بالسماء فالأمر في جميع ذلك ماضٍ على قدرة الباري سبحانه ولا يختل ولا يعتل ولا يتخلف منه شيء عن ميقاته لصالح العالم فسبحانه العليم القدير.

(٤) الشَّعْرَى: الكوكب الذي يطلع في الجوزاء وطلوعه في شدة الحر.

(٥) بنات نعش: الكبرى سبعة كواكب نشاهدها جهة القطب الشمالي ومثلها الصغرى والنجمة التي رُسمت كبيرة هي النجمة القطبية التي يستدل بها على نقطة القطب الشمالي.

باب في حكمة خلق الأرض

قال تعالى :

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾^(١).

ثم انظر كيف جعل الله الأرض مهاداً ليستقر عليها الحيوان فإنه لا بد له من مستقر ولا غناء له عن قوت فجميع الأرض محل للنبات لقوته ومسكن يكنه من الحر والبرد ومدفن يدفن فيه ما تؤذى رائحته والجيف والأقذار من أجسام بني آدم وغيرها كما قال سبحانه :

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْواتًا﴾^(٢).

قيل في تفسير هذه الآية هذا القول وغيره ثم ذلل طرقها لتنتقل فيها الخلق طلب ما ربهم فهي موضوعة لبقاء النسل من جميع أصناف الحيوان والحرث النبات وجعل فيها الإستقرار والثبات كما نبه على ذلك سبحانه وتعالى بقوله :

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا . مَتَّعًا لَكُمْ

(١) سورة الذاريات : الآية (٤٨) .

إن الله تعالى جعل الأرض فراشاً لجميع مخلوقاته وجعلها مهداً لأهلها .

(٢) سورة المرسلات : الآية (٢٥ ، ٢٦) .

قال الشعبي : بطنها لأمواتكم وظهرها لأحيائكم .

وَلَا نَعْمِكُمْ ﴿٣﴾ .

فأمكن الخلائق بهذا التصرف فيها في مآربهم والجلوس لراحتهم والنوم لهدوهم والانتقال لأعمالهم فإنها لو كانت رجراجة متحركة لم يستطيعوا أن يتقنوا شيئاً من النبات وجميع الصناعات وكانوا لا يتهنون بالعيش والأرض ترتج بهم من تحتهم واعتبر ذلك بما يصيب الناس في الزلازل ترهيباً للخلق وتخويفاً لهم لعلهم يتقنون الله ويزرعون عن الظلم والعصيان ، فهذا أيضاً من الحكمة البالغة ثم أن الأرض طبعها الله باردة يابسة بقدر مخصوص أرأيت لو أفرط أليس عليها حتى تكون بجملتها حجراً صلباً لما كانت تنبت هذا النبات الذي به حياة الحيوانات ولا كان يمكن فيها حرث ولا بناء فجعلها لينة لتهيأ لهذه الأعمال .

ومن الحكمة في خلقها ووضعها أن جعل مهب الشمال أرفع من الجنوب لينحدر الماء على وجه الأرض فيسقيها ويرويه ثم يصير إلى البحر في آخر الأمر فأشبه ذلك ما إذا رفع أحد جانبي السطح وخفض الآخر لينحدر الماء عنه ولولا ذلك لبقى الماء مستبحراً على وجه الأرض فيمتنع الناس من أعمالهم وتنقطع الطرة، والمسالك بسبب ذلك .

انظر إلى ما خلق الله فيها من المعادن وما يخرج منها من أنواع الجواهر المختلفة في منافعها وألوانها من الذهب والفضة والياقوت والزمرد والبستفس وأشياء كثيرة من هذه الأحجار الشفافة المختلفة في ألوانها وأنواع أخرى مما يصلح الأعمال والجمال كالحديد والنحاس والقزدير والرصاص والكبريت والزرنيخ والتوتيا والرخام

(٣) سورة النازعات: الآيات (٣١، ٣٢، ٣٣) .

﴿أخرج منها ماءها ومرعها﴾ وقد تقدّم في سورة (حم السجدة) أن الأرض خلقت قبل خلق السماء ولكن إنما ذهبت بعد خلق السماء، بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل - عن ابن عباس - ﴿دحاها﴾ ودحيتها أن أخرج منها الماء والمرعى وشقق فيها الأنهار وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام . وقوله تعالى: ﴿والجبال أرساها﴾ أي قررها وأثبتها في أماكنها وهو الحكيم العليم الرؤوف بخلقه . وقوله تعالى: ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ أي دحا الأرض فاتبع عيونها، وأظهر مكنونها، وأجرى أنهارها، وأنبت زروعها وأشجارها، وثبت جبالها لتستقر بأهلها ويقر قرارها، كل ذلك متاعاً لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدة إحتياجهم إليها في هذه الدار، إلى أن ينتهي الأمد ويتقضي الأجل . مختصر تفسير ابن كثير .

والجبس والنفط وأنواع لو عددت لطال ذكرها وهو مما ينتفع به الناس وينصرف فيما يصلحهم فهذه نعم يسرها سبحانه لهم لعمارة هذه الدار.

ثم انظر إلى إرادة إيجادته من عمارتها وانتفاع العباد بها لجعلها هشة سهلة بخلاف ما لو كانت على نحو خلق الجبال فلو ييسر كذلك لتعذرت فإن الحرث لا يستقيم إلا مع رخاوة الأرض لزراعة الأقوات والثمر وإلا لا يتعدى إذا صلبت الماء إلى الحب مع أن الحب لا يمكن دفنه إلا بعد أن تلين الأرض بالنداوة ويأخذ الورق وهي ضعيفة في ابتدائها في الأرض التربة ويمكن إذ ذاك عملها وتحريكها حتى تشرب ما ينزل عليها من الماء فيخلق الله سبحانه عند ذلك العروق ملتبسة بالثرى حتى يقف الشجر والنبات على ساقه وجعل ما يخلق من العروق يوازن ما يخلق من الفروع.

ومن رحمته في لينها أن ييسر للناس حفر الآبار في المواضع المحتاجة إلى ذلك إذ لو حفرت في الجبال لصعب الأمر وشق.

ومن الحكمة في لينها تيسير السير للسعاة فيها إذ لو صلبت لعسر السير ولم تظهر الطرق وقد نبه الله تبارك وتعالى على ذلك بقوله:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ (٤).

وقال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (٥).

(٤) سورة الملك: الآية (١٥).

يذكر الله تعالى نعمته على خلقه في تسحيه لهم الأرض، وتدليله إياها لهم وهيّا فيها من المنافع ومواضع الزروع والتمار، ثم يحث المؤمنين على السفر في الأرض حيث شأؤوا من أقطارها، وترددوا في أقاليمها وأرجائها طلباً للمكاسب والتجارة، وليعلموا أن سعيهم لا يجدي عليهم نفعاً إلا أن ييسره الله لهم. فاسعوا في الأرض وتوكلوا على الله.

وقال رسول الله ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تعدو خماصاً وتروح بطاناً» - رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عمر بن الخطاب (عليه السلام) - وقال ابن عباس ومجاهد: مناكبها: أطرافها وفجاجها وبواحيها. مختصر ابن كثير.

(٥) سورة الأنبياء: الآية (٣١)

أي جعلنا نغراً في الجبال يسلكون فيها طرقاً، من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم، كما

ومن ذلك ما يستعين به العباد من ترابها ولينها في البناء وعمل اللبن وأواني الفخار وغير ذلك والمواضع التي بنيت فيها الملح والشب والسورق^(٦) والكبريت وأكثرها تربة رخوة وأيضاً أجناس من النبات لا توجد إلا في التراب والرمل دون الأرض المجبلة.

ويخلق فيها كثير من الحيوان لسهولة حفرها فيتخذون فيها مسارب ويوتاً يأوون إليها ومن الحكمة فيها خلق المعادن كما ذكر فقد امتن سبحانه على سليمان عليه السلام بذلك فقال: «وأسلنا له عين القطر» أي سهلنا له الإنتفاع بالنحاس وأطلعناه على معدنه وقال امتناناً على عباده:

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾^(٧).

والنزول بمعنى الخلق كما قال سبحانه:

﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ﴾^(٨).

أي خلقهم وألهمهم استخراج ما فيها من ذهب وفضة وغير ذلك لمنافعهم وما يحتاجون إليه في معاشهم وفي اتخاذ أوانيهم وفي ضبط ما يحتاجون إلى ضبطه وتقويته واتخاذ أنواع من الحجارة النفيسة لتبقى فيها كالزجاج ويتخذون منها أواني لحفظ ما يجعل فيها من الأموال النفيسة لتبقى فيها سليمة لوقت الإحتياج إليها إذ لا غنى لهم عنها.

كذلك يستخرج من المعادن الأكحال مثل (لدهب والمفيعما) والسادن^(٩) والتوتيا وغير ذلك من أصناف ينتفعون بها فسبحان المنعم الكريم.

ومن الحكمة البالغة فيها خلق الجبال قال الله تعالى:

هو المشاهد في الأرض يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيجعل الله فيه فجوة ثغرة ليسلك الناس فيها من ههنا إلى ههنا ولهذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

(٦) البورق: النطرون، قيل هو أقوى من الملح لكن ليس له قبض (فارسية وقيل يونانية).

(٧) سورة الحديد: الآية (٢٥).

(٨) سورة الزمر: الآية (٦).

(٩) السَّادَن: هنا بمعنى السندان، قال ابن عباس. ثلاثة أشياء نزلت مع آدم: السندان، والكلبتان، والميقعة يعني المطرقة.

﴿وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا مَتَعًا لَكُمْ﴾^(١٠).

وقال تعالى :

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رُوسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾^(١١)

وقال سبحانه :

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَهُ فِي الْأَرْضِ﴾^(١٢).

فقد خلق سبحانه فيها الجبال لمنافع متعددة لا يحيط بجميعها إلا الله، فمن ذلك أن الله تعالى أنزل من السماء المياه ليحيى بها العباد فلو كانت الأرض عارية عن الجبال لحكم عليها الهواء وحر الشمس مع رخاوة الأرض فكانوا لا يجدون المياه إلا بعد حفر وتعب ومشقة فجعل سبحانه الجبال لتستقر في بطونها المياه وتخرج أولاً فأول فتكون منها عيون وأنهار وبحار يرتوي بها العباد في أيام القيظ إلى أوان نزول غيث السماء.

ومن الجبال ما ليس في باطنها محل للمياه فجعل الثلج محفوظاً على ظاهرها إلى أن يحله حر الشمس فيكون منه أنهار وسواق ينتفع بها إلى أوان نزول الغيث أيضاً.

ومنها ما يكون فيه برك يستقر فيها الماء فيؤخذ منها وينتفع به كما ينتفع به من الأجباب^(١٣) ومن منافع الجبال ما ينبت فيها من أنواع الأشجار والعقاقير التي لا توجد إلا فيها وما ينبت فيها من أنواع الأخشاب العظيمة فيعمل منها السفن وتعمر منها المساكن وفيها الشعاري التي لا يوجد ما يعظم من الأخشاب إلا فيها وكذلك العقاقير أكثرها لا يوجد إلا بها وفيها وهذا ينبت مزارع للأنعام ومزارع لبني آدم ومساكن للوحوش ومواضع لأجناس النحل.

ومن منافع الجبال ما يتخذها العباد من مساكن تقيهم الحر والبرد ويتخذون مدافن لحفظ جثث الموتى وقد ذكر الله ذلك فقال :

(١٠) سورة النازعات : الآيات (٣٢، ٣٣).

(١١) سورة فصلت : الآية (١٠) سورة النحل : الآية (١٥).

(١٢) سورة المؤمنون : الآية (١٨).

(١٣) الأجباب : مفردا جب، وهو البئر.

﴿وَكَاُنُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ (١٤).

ومن فوائدها أن جعلت أعلاماً يستدل بها المسافرون على الطرقات في نواحي الأرض ويستدل بها المسافرون في البحار على المين والسواحل، ومن فوائدها أن الفئة القليلة الضعيفة الخائفة من عدوان من لا تطيقه تتخذ ما يحصنها ويؤمنها ويمنعها ممن تخافه فتطمئن لذلك وانظر كيف خلق الله فيها الذهب والفضة وقدرهما بتقدير مخصوص ولم يجعل ذلك ميسراً في الوجود والقدر مع سعة قدرته وشمول نعمته كما جعل هذه السعة في المياه وما ذلك إلا لما سبق في علمه لخلائقه مما هو الأصلح كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿وَإِنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (١٥).

فسبحان العليم الحكيم.

(١٤) سورة الحجر: الآية (٨٢).

(١٥) سورة الحجر: الآية (٢١).

(*) في هذه الآيات الكريمة (٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥). أن الله تعالى خلق لنا الأرض وألهمنا لإستخراج ما فيها لصالح عيشنا الكريم مع السعي والعمل والتوكل على الله. وللإنسان أن يحيط نفسه بالضمانات التي تقيه الوقوع في الخطأ والعوز والكسل، وأن يتعلم من ماضيه ما يصون حاضره ومستقبله. وتمكينه من العمل الذي يسره الله له في الأرض والجبال والمياه، فصداقاً لقوله تعالى: ﴿ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش﴾ (الأعراف: ١٠).

باب ففي حكمة خلق البحر

قال الله تبارك وتعالى :

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾^(١).

الآية أعلم رحمك الله أنه سبحانه وتعالى خلق البحار وأوسع فيها لعظم نفعها فجعلها مكتنفة لأقطار الأرض التي هي قطعة من الأرض المستورة بالبحر الأعظم المحيط بجميع الأرض حتى أن جميع المكشوف من البراري والجبال عن الماء بالإضافة إلى الماء كربوة صغيرة في بحر عظيم.

فاعلم أن ما يخلق في الأرض من الحيوان بالإضافة إلى ما خلق في البحر كإضافة الأرض إلى البحر وقد شاهدت فيها عجائب ما هو مكشوف منها فتأمل عجائب البحر^(٢) فإن فيه من الحيوان والجواهر والطيب أضعاف ما نشاهده على

(١) سورة النحل: الآية (١٤).

يخبر تعالى عن تسخير البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بنذيله لهم وتيسيرهم للركوب فيه، وإستخراجهم من قراره من الحيوان أضعاف ما نشاهده على وجه الأرض.

(٢) يقول باحث الأحياء المائي (جيري جرنبرج) واصفاً مدينة الشعاب المرجانية: هي مدينة تحت البحر. مدينة لم يشارك في بناء حجر منها إنسان. إنها مدينة طبيعية من صنع الخالق جل شأنه. ها هي قناديل البحر تتنفخ وتضيء وها هي المدينة تبدو كبساط سحري مزركش مطرز بألف لون يضم لوحات طبيعية حية. . إنها الشعاب المرجانية، إنها الجمال البكر الحالم ويوجد هناك أكثر من خمسين نوعاً من الشعاب مختلفة الأشكال والألوان ذات مسميات عديدة مثل: النجوم، نبات الصبار، الحلزونية، الأسفنجية الورقة التوزيعية،

وجه الأرض كما أن سعته أضعاف سعة الأرض ولعظم سعته كان فيه من الحيوانات والدواب العظيمة ما إذا أبدت ظهورها على وجه البحر ظن من يراها أنها حشاش أو جبال أو جزائر وما من صنف من أصناف حيوان البر من إنسان وطائر وفرس وبقرة غير ذلك إلا وفي البحر أمثالها وأضعافها وفيه أجناس من الحيوانات لم تعد أمثالها في البر وكل منها قد دبره الباري سبحانه وخلق فيه ما يحتاجه ويصلحه ولو استقصى ذكر ما يحتويه بعضه لإحتاج إلى وضع مجلدات.

ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ مدوراً في صدف^(٣) تحت الماء وأثبت المرجان في جنب صخور في البحر فقال سبحانه:

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾^(٤).

وذلك في معرض الإمتنان وقيل المرجان المذكور في القرآن هو الرقيق من اللؤلؤ ثم قال:

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾^(٥).

وآلؤه تفضله ونعمه ثم انظر ما يقذفه من العنبر^(٦) وغيره من المنفوع ثم انظر إلى عجائب السفن وكيف مسكها على وجه الماء تسيير فيها العباد لطلب الأبوال وتحصيل مالهم من الأغراض جعلها من آياته ونعمته فقال:

﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾^(٧).

الطاووسية . . . الح . . . وكأنك في بلاط إمبراطوري .

(٣) هو إفراز بعض الحيوانات البحرية الرخوية كالمحار بدافع به عن نفسه ضد الأجسام العريضة التي تغزو جسمه .

(٤) سورة الرحمن: الآية (٢٢)

(٥) سورة الرحمن: الآية (١٣) .

فبأي الآلاء يا معشر الثقلين من الإنس والجن تكذبان؟ أي النعم ظاهرة عليكم وأنتم معمورون بها، لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها، فنحن نقول كما قالت الجن: «اللهم ولا بشيء من آلائك ربنا تكذب فلك الحمد»، وكان ابن عباس يقول: لا بأيتها يا رب، أي لا تكذب بشيء منها. محتصر ابن كثير.

(٦) العنبر: قيل أنه إفراز بعض الكائنات البحرية، ولعله التمساح.

(٧) سورة البقرة: الآية (١٦٤) .

أي في تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب، لمعيش الناس والانتفاع بما

فجعلها بتسخيره تحملهم وتحمل أثقالهم وينتقلون بها من أقاليم إلى أقاليم لا يمكن وصولهم إليها إلا بالسفن ولو راموا التوصل بغيرها لأدى إلى أعظم المشقات وعجزوا عن نقل ما ينقل من المنقولات إلى ما بعد من البلاد والجهات .

فلما أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفظ بعباده ويهون ذلك عليهم خلق الأخشاب متخلخلة الأجزاء بالهواء ليحملها الماء^(٨) ويبقى فيها من الفضاء عن نفسها ما تحمل به الأثقال وألهم العباد اتخاذها سفناً ثم أرسل الرياح بمقادير في أوقات تسوق السفن وتسيرها من موضع إلى موضع آخر ثم ألهم أربابها معرفة أوقات هبوبها وفترتها حتى يسيروا بالرياح التي تحمل شراعتها .

وانظر إلى ما يسره سبحانه في خلقه الماء إذ هو جسم لطيف رقيق سيال متصل الأجزاء كأنه شيء واحد لطيف التركيب سريع القبول للتقطع حتى كأنه منفصل مسخراً للتصرف قابل للإتصال والانفصال حتى يمكن سير السفن فيه فالعجب ممن يغفل عن نعمة الله في هذا كله وفي بعضه متسع للفكر .

وكل ذلك شواهد متظاهرة ودلائل متضافرة وآيات ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال قدرته وعجائب حكمته قائلة أما ترى تصويري وتركيبى وصفائى زمنياً واختلاف حالى وكثرة فوائدى أظن ذو لب سليم وعقل رصين أنى تكونت بنفسى أو أبدعنى أحد من جنسى بل ذلك صنع القادر القهار العزيز الجبار .

عند أهل ذلك الأقليم، ونقل هذا إلى هؤلاء، وما عند أولئك إلى هؤلاء . مختصر ابن كثير .
(٨) ويقصد بها المراكب والسفن وغيره من وسائل النقل البحرية المصنوعة كلها من الأخشاب لأنها تطفو على وجه الماء، ويحركها الهواء لخفتها، وبمساعدة الأشعة .

باب في حكمة خلق الماء.

قال الله تبارك وتعالى :

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

وقال عز شأنه :

﴿أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ بِأَنَّ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾^(٢).

(١) سورة الأنبياء: الآية (٣٠).

(٢) سورة النمل: الآية (٦٠).

﴿أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾: أي خلق تلك السماوات في إرتفاعها وصفائها، وما جعل فيها من الكواكب النيرة، والنجوم الزاهرة، والأفلاك الدائرة، وخلق الأرض وما فيها من الجبال والأطواد والسهول والأوعار، والقيافي والقفار، والزرع والأشجار والثمار والبحار، والحيوان على إختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك. وقوله تعالى ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾. أي جعله رزقاً للعباد ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾ أي بساتين ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي منظر حسن وشكل بهي ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ أي لم تكونوا تقدرّون على إنبات أشجارها وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف به المشركون ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾. أي هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده

انظر وفقك الله إلى ما من به سبحانه وتعالى على عباده بوجود الماء العذب الذي به حياة كل من على وجه الأرض من حيوان ونبات فلو اضطر الإنسان إلى شربة منه ومنع منها لهان عليه أن يبذل فيها ما يمكنه من خزائن الدنيا.

والعجب من غفلة العباد عن هذه النعمة العظيمة وانظر مع شدة الحاجة إليها كيف وسع سبحانه على العباد فيها ولو جعلها بقدر لضاق الأمر فيها وعظم الحرج على كل من سكن الدنيا.

ثم انظر لطافة الماء ورقته حتى ينزل من الأرض ويخلخل أجزاءها فتغذي عروق الشجر ويصعد بلطافته بواسطة حرارة الشمس إلى أعالي الشجر والنباتات وهو من طبعه الهبوط ولما كانت الضرورة تدعو إلى شربه لإماعة الأغذية في أجواف الحيوان ليتصرف الغذاء إلى موضعه جعل لشاربه في شربه لذة عند الحاجة إليه وقبولاً له ويجد شاربه فيه نعيماً وراحة وجعل مزيلاً للأدران عن الأبدان والأوساخ عن الثياب وغيره وبالماء يبل التراب فيصلح البناء والأعمال وبه يربط كل يابس مما لا يمكن استعماله يابساً وبه ترفق الأشربة فيسوغ شربها وبه تطفأ عادية النار إذا وقدت فيها فلا تلتهب فيه وأشرف الناس منها عليها يكرهون وبه تزول الغصة إذا أشرف صاحبها على الموت وبه يغتسل التعب الكال فيجد الراحة لوقته.

وبه تستقيم المطبوعات وجميع الأشياء التي لا تستعمل ولا تصلح إلا رطبة إلى غير ذلك من مآرب العباد التي لا غنى عنها فانظر في عموم هذه النعمة وسهولة تناولها عن قدرها مع شدة الحاجة إليها فلو ضاقت لتكدرت الحياة في الدنيا فاعلم بهذا أن الله تبارك وتعالى أراد بإنزاله وتيسيره عمارة الدنيا^(٣) بما فيها من حيوان

لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَهَ مَعِ اللَّهِ﴾، أي إله مع الله يعبد، وقد تبين لكم ولكل ذي لب مما يعترفون به أيضاً أنه الخالق الرازق، ومن المفسرين من يقول: فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المتفرد بالخلق والرزق والتدبير؟ ثم قال ﴿يَلْهُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، أي يجعلون لله عدلاً ونظيراً، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾. مختصر ابن كثير.

(٣) أوجد الله سبحانه وتعالى الماء العذب، وأنزل له لعباده من السماء طهوراً طيباً مباركاً غداً عذياً فراتاً سائغاً للشاربين، وذلك لحاجتهم الماسة والضرورية إليه، فهو قوام حياة البشر والحيوان والزرع، وبدونه لا تقوم حياة الإنسان أو حيوان أو زرع. فهو كما يقول ابن القيم:

ونبات ومعدن إلى غير ذلك من المنافع التي يقصر عنها الوصف لمن يروم حصرها
فسبحان المتفضل العظيم.

«مادة الحياة، وسيد الشراب، وأحد أركان العالم بل ركنه الأصلي، فإن السموات خلقت من
بخاره، والأرض من زبده، وقد جعل الله منه كل شيء حي».

وهنا لا بدّ لنا في هذا الباب، من الحديث عن ماء زمزم: وهو من أشهر المياه عند
العرب، فقد ورد في آثار السلف أن الكثير من المرضى تداووا به، وذكرت المصادر أن أبا
ذر العفاري رضي الله عنه عاش على ماء زمزم ثلاثين يوماً وليلة فسم ولم يهزل. وذكر الإمام
ابن القيم: أنه شاهد من كان يتداوى بماء زمزم كما رأى من كان يتغذى بذلك الماء،
ويعيش عليه فترة طويلة دون أن يضعف أو تذهب قوته. والعرب تقول: «أطيب الطيب
الماء».

باب الحكمة في خلق الهواء

قال الله تعالى :

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَّاحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنُكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾^(١).

اعلم رحمك الله أن الهواء في خلقه تتخلخله الرياح ولولا ذلك لهلك جميع حيوان البر وباستنشاقه تعتدل الحرارة في أجسام جميع الحيوانات لأنه لهم مثل الماء لحيوان البحر فلو انقطع عن الحيوان استنشاقه انصرفت الحرارة التي فيها إلى

(١) سورة الحجر: الآية (٢٢).

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَّاحٍ﴾: أي تلقح السحاب فتدر ماء وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها وذكرها تعالى بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج بخلاف الريح العقيم، فإنه أفردها ووصفها بالعقيم، وهو عدم الإنتاج، وقال الضحاك: يبعثها الله على السحاب فتلقحه فيمتلىء ماء، وقال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله المباشرة فتقم الأرض قمأ، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب، ثم يبعث الله اللواقيح فتلقح الشجر. ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ أي أنزلناه لكم عذباً يمكنكم أن تشربوا منه. ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِخَازِنِينَ﴾ قال سفيان الثوري: بمانعين، ويحتمل أن المراد: وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله معيناً وينابيع في الأرض، لولو شاء تعالى لأغاره، وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذباً وحفظه. في العيون والآبار والأنهار، ليبقى لهم في طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم مختصر ابن كثير.

قلبيها فكان هلاكاً بسبب ذلك ثم انظر إلى الحكمة في سوق السحاب به فيقطع المطر بانتقال السحاب إلى موضع يحتاج إلى المطر فيها للزراعة فلولا لطف الباري يخلق الرياح لثقلت السحاب وبقيت راكدة في أماكنها وامتنع انتفاع الأرض بها.

ثم انظر عنها كيف تسير السفن بها وتنتقل بحدوثها وهبوبها فتحمل فيها من أقاليم إلى أقاليم مما لا يخلق تلك الأشياء فيها فيتتفع أهلها بها فلولا تنقلها بالهواء لم تكن تلك الأشياء إلا بمواضعها التي خلقت فيها خاصة ولعسر نقلها بالدواب إلى غيرها من الأقاليم وللعباد ضرورات تدعو إل ما ينقل إليهم مما ليس يخلق عندهم ومنافع يكثر تعدادها من طلب أرباح لمن يحملها ويعلم فوائدها.

ثم انظر إلى ما في الهواء من اللطافة والحركة يتخلل أجزاء العالم فينقى بحركته عفن الأرض فلولا لعفنت المساكن وهلك الحيوان بالبواء والعلل.

ثم انظر إلى ما يحصل منه من النفع في نقل السواقي والرمال إلى البساتين وتقوية أشجارها بما ينتقل إليها من التراب بسبب حركة الهواء وتستتر وجوه جبال بالسواقي فيمكن الزراعة فيه وما فصل إلى السواحل مما ينتفع الناس بسببه وكل ذلك بحركة البحر بالهواء^(٢) فيقذف البحر العنبر وغيره مما ينتفع به العباد في أمورهم.

ثم انظر كيف يتفرق المطر بسبب حركة الهواء فيقع على الأرض قطرات فلولا حركة الهواء لكان الماء عند نزوله ينزل انصبابة واحدة فيهلك ما يقع عليه ثم يجتمع بلل القطرات فيجتمع أنهاراً وبحاراً على وجه الأرض من غير تضرر ويحصل بذلك مقصودهم على أحسن وجه.

فانظر إلى أثر رحمة الله فسيحان اللطيف بخلقه المدبر لملكه ثم انظر عموم هذه الرحمة وعظيم نفعها وشمول هذه النعمة وجليل قدرها كما نبه العقول عليها بقوله تعالى :

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ

(٢) أمواج البحر التي تراها هادئة حيناً ومائجة أحياناً ما هي إلا حركة الرياح والهواء اللين مرة والعاصف مرات. وحركة الموج هذه تمنع ترسب الملح في قاع البحر وإلا لماتت جميع الكائنات البحرية.

يُنْبِتْ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾.

ثم من باب النعمة وعظيم الحكمة أن جعل سبحانه الصحو يتخلل نزول الغيث فصارا يتعاقبان لما فيه صلاح هذا العالم فلو دام واحد منهما عليه لكان فساداً.

ألا ترى أن الأمطار إذا توالى وكثرت عفنت البقول والخضروات وهدمت المساكن والبيوت وقطعت السبل^(٤) ومنعت من الأسفار وكثير من الحرف والصناعات ولو دام الصحو لجفت الأبدان والنبات وعفن الماء في العيون والأودية فأضر ذلك بالعباد وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضرراً آخر من الأمراض وغلت بسببه الأسعار من الأقوات وبطل المرعى وتعذر على النحل ما يجده من الرطوبة التي يربعاها على الأزهار وإذا تعاقبا على العالم اعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما ضرر الآخر فصلحت الأشياء واستقامت وهذا هو الغالب من مشيئة الله. فإن قلَّ قد يقع من أحدهما ضرر في بعض الأوقات.

قلنا قد يكون ذلك لتنبية الإنسان بتضاد الأشياء على نعمة الله تعالى وفضله ورحمته أنه هو الغالب فيحصل لهم بذلك انزجار عن الظلم والعصيان ألا ترى أن من سقم جسمه احتاج إلى ما يلائمه من الأدوية البشعة الكريهة ليصلح جسمه ويصلح ما فسد منه قال الله تعالى :

(٣) سورة النحل : الأيتان (١٠ ، ١١).

تسيمون - أي ترعون، ومنه الإبل السائمة، والسوم : الرعي.

(٤) تسمع في هذه الأيام كثيراً عن (الكوارث الطبيعية) في بلدان العالم حيث تهدم البيوت وتنهار الجسور وتقطع الطرقات، وتغرق مساحات كبيرة من القرى والمزارع بالمياه ويتعذر معها الحركة والعمل، والإنسان يراقب ويرى وليس في يده حيلة، هذا إذا زاد المطر عن حده قليلاً فكيف إذا تساقط المطر بشكل دائم، فتصوّر ما هي النتيجة، وتذكر نعم الله وجليل قدره في مخلوقاته.

﴿وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾^(٥).

(٥) سورة الشورى: الآية (٢٧).

أي يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم وهو أعلم بذلك، فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر، كما جاء في الحديث المروي - أي المحكي عن الله عز وجل وهو المشهور بالحديث القدسي - : «إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغني ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه». مختصر ابن كثير.

باب ففي حكمة خلق النار

قال الله تعالى :

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَنُّكُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ نَحْنُ
جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾^(١).

اعلم وفقنا الله وإياك أن الله خلق النار وهي من أعظم النعم على عباده ولما

(١) سورة الواقعة: الآيات (٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤).

﴿أفرأيتم النار التي تورون﴾ أي تقدحون من الزناد وتستخرجونها من أصلها. ﴿أنشأتم شجرتها أن نحن المنشئون﴾ أي بل نحن الذين جعلناها مودعة في موضعها وللعرب شجرتان: إحداهما (المرخ) والأخرى (العفار) إذا أخذ منهما غصنان أخضران فحك أحدهما بالآخر تنأثر من بينهما شرر نار. وقوله تعالى: ﴿نحن جعلناها تذكرة﴾: قال مجاهد وقتادة: أي تذكر النار الكبرى، وعن النبي ﷺ قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزء من نار جهنم وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد».

وقوله تعالى: ﴿ومتاعاً للمقوين﴾: قال ابن عباس ومجاهد: يعني بالمقوين المسافرين واختاره ابن جرير، وقال ابن أسلم: المقوي ههنا الجائع، وقال ليث، عن مجاهد: أي للحاضر والمسافر، لكل طعام لا يصلحه إلا النار وعنه ﴿للمقوين﴾ يعني المستمتعين من الناس أجمعين، وهذا التفسير أعم من غيره. وقوله تعالى: ﴿فسبح بسم ربك العظيم﴾: أي الذي بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة، الماء الزلال العذب البارد، ولو شاء لجعله ملحاً أجاجاً كالبحار المغرقة، وخلق النار المحرقة وجعل ذلك مصلحة للعباد وجعل هذه منفعة لهم في معاش دنياهم، وزجراً لهم في المعاد. مختصر ابن كثير.

علم الله سبحانه وتعالى أن كثرتها وبثها في العالم مفسدة جعلها الله بحكمته محصورة حتى إذا احتيج إليها وجدت واستعملت في كل أمر يحتاج إليها فيه فهي مخزونة في الأجسام ومنافعها كثيرة لا تحصى فمنها ما تصلحه من الطبائخ والأشربة التي لولاها لم يحصل فيها نضج ولا تركيب ولا اختلاط ولا صحة هضم لمن يستعملها في أكل وشرب فانظر لطف الباري سبحانه في هذا الأمر المهم .

ثم انظر فيما يحتاج الناس إليه من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والقردير وغير ذلك فلولاها لم يكن شيء من الانتفاع من هذه الأشياء فيها يذاب النحاس فتعمل منه الأواني وغيرها وقد نبه الله تعالى على مثل ذلك بأنها نعمة توجب الشكر فقال تعالى :

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾^(٢) .

وبها يلين الحديد فيعملون به أنواعاً من المنافع والآلات للحروب مثل الدروع والسيوف إلى غير ذلك مما يطول تعداداه وقد نبه الله تعالى على مثل ذلك فقال :

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾^(٣) .

وقال تعالى :

﴿لَتُحْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾^(٤) .

(٢) سورة سبأ: الآية (١٣) .

(٣) سورة الحديد: الآية (٢٥) .

(٤) سورة الأنبياء: الآية (٨٠) .

ومنه يعمل آلات للحرث والحصاد وآلات تتأثر بها النار وآلات يطرق بها وآلات لقطع القبال الصمة وآلات لنجارة الأخشاب مما يكثر تعدادها فلولا لطف الله^(٥) سبحانه بخلق النار لم يحصل من ذلك شيء من المنافع ولولاها لما كان يتهاى للخلق من الذهب والفضة نقود ولا زينة ولا منفعة وكانت هذه الجواهر معدودة من جملة الأتربة .

ثم انظر إلى ما جعل الله تعالى في النار من الفرح والترح عندما تغشى الناس ظلمة الليل كيف يستضيئون بها ويهتدون بنورها في جميع أحوالهم من أكل وشرب وتمهيد مراقب ورؤية ما يؤذيهم ومؤانسة مرضاهم وقصدها والعمل عليها براً وبحراً فيجدون بوجودها إنساً حتى كأن الشمس لم تغب عن أفقهم ويدفعون بها ضرر الثلوج والرياح الباردة ويستعينون بها في الحروب ومقاومة حصون لا تملك إلا بها فانظر ما أعظم قدر هذه النعمة التي جعل سبحانه حكمها بأيديهم إن شاؤا خزنوها وإن شاؤا أبرزوها .

(٥) للبار أقوى الصلوات وأمتنها بالحياة الإنسانية مند بدء الخليقة فهي خير وشر في آن واحد . إذا خدمت الإنسان نفعته وأحسنّت إليه ، وإذا انطلقت دمرت وأحرقت بلا حدود ولقد أوجد الله سبحانه وتعالى النار وأنشأها لعباده لحاجتهم الماسة والصرورية إليها فهي من أعظم ما يرتفقون به في معاشهم ، وبدونها لا تصلح حياتهم ولا تستقيم أمورهم ، ولا يساويها في عظيم نفعها وعظيم خطرها وجليل أثرها إلا الماء . يقول السي الكريم ﷺ : « الناس شركاء في ثلاثة : النار والكلاء والماء . وهذه النار التي إمتن الله بها على عباده وعدّها من عظيم آلائه ونعمه عليهم في معاشهم وحياتهم ، هي التي توعدّها العاصين منهم ، وأنذرهم بعقابه لهم بها في معادهم وأخراهم . كما ورد ذكر النار في القرآن الكريم (١٤٥ مرة) عدّد فيها صفاتها

باب ففي حكمة خلق الإنسان

قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ﴾^(١).

إلى آخر ما وصفه سبحانه . اعلم وفقك الله تعالى أن الله عز وجل لما سبق في علمه خلق الخلق وبثهم في هذه الدار وتكليفهم فيها للبلوى .

خلقهم سبحانه متناسلين بعضهم من بعض فخلق سبحانه الذكر والأنثى وألقى في قلوبهم المحبة والدواعي حتي عجزوا عن الصبر وعدموا الحياة في اجتناب الشهوة فساقتهم الشهوة المفطورة^(٢) في خلقهم إلى الاجتماع .

وجعل الفكرة تحرك عضواً مخصوصاً به إلى إيداع الماء في القرار المكين

(١) سورة المؤمنون . الآية (١٢) .

يقول تعالى : مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين ، وهو آدم عليه السلام ، خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون . وقال ابن عباس «من سلالة من طين» قال : وقال ابن جرير : إنما سمي آدم طيناً لأنه مخلوق منه ، وقال قتادة : استل آدم من الطين وهذا أظهر في المعنى ، وأقرب إلى السياق ، فإن آدم عليه السلام خلق من طين لازب وهو الصلصال من الحمأ المسنون . وذلك مخلوق من التراب . مختصر ابن كثير .

(٢) الشهوة المفطورة تعني الاجتماع ، وهو الزواج الشرعي والمحبة حتى يستقيم العجز عن الصبر مع طبيعة النفس البشرية ، لذلك رفض الإسلام طريق الرهينة واجتناب الشهوة لأنه بالرهينة تعطيل لعنصر الشهوة المفطورة في طبيعة الإنسان من ذكر وأنثى .

الذي يخلق فيه الجنين فاجتمعت فيه النطفة من سائر البدن وخرجت ماء دافقاً مندفعاً من بين الصلب والترائب بحركة مخصوصة فانتقلت بسبب الإفلاح من باطن إلى باطن فكانت مع انتقالها باقية على أصلها لأنها ماء مهين أدنى شيء يباشرها يفسدها ويغير مزاجها فهي ماء مختلط جميعه مستوية أجزاؤه لا تفاوت فيها بحال .

فخلق سبحانه منه الذكر والأنثى بعد نقلها من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام ثم كساها اللحم وشدها بالأعصاب والأوتار ونسجها بالعروق وخلق الأعضاء وركبها فدور سبحانه الرأس^(٣) وشق فيه السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ فجعل العين للبصر ومن العجائب سر كونها مبصرة للأشياء وهو أمر يعجز عن شرح سره .

وركبها من سبع طبقات لكل طبقة صفة وهيئة مخصوصة بها فلو فقدت طبقة منها أو زالت لتعطلت عن الأبصار .

وانظر إلى هيئة الأشفار التي تحيط بها وما خلق فيها من سرعة الحركة لتقي العين مما يصل إليها مما يؤذيها من غبار وغيره فكانت الأشفار بمنزلة باب يفتح وقت الحاجة ويغلق في غير وقتها ولما كان المقصود من الأشفار جمال العين والوجه جعل شعرها على قدر لا يزيد زيادة تضر بالعين ولا ينقص نقصاً يضر بها وخلق في مائها ملوحة لتقطع ما يقطع فيها وجعل أطرافها منخفضة عن وسطها قليلاً لينصرف ما يقع في العين لأحد الجانبين وجعل الحاجبين جمالاً للوجه وستراً للعين وشعرهما يشبه الأهداب في عدم الزيادة المشوهة .

وجعل شعر الرأس واللحية قابلاً للزيادة والنقص فيعمل فيهما ما يقصد به الجمال من غير تشويه .

ثم انظر إلى اللسان^(٤) وما في ذلك من الحكم فجعل الشفتين ستراً للفم

(٣) إن حكمة الباري سبحانه يجعل الرأس قمة الجسم البشري تجعلنا خاشعين لقدرته وحكمته في تكوين خلقه حيث ركب فيه السمع والبصر والأنف والفم والأذن وهي أهم الحواس المميزة للعنصر البشري ، وحمى فيه ضمن تجويف عظمي متين الدماغ المفكر والأعصاب الأمرة والناحية ، ومركز الذاكرة والسيطرة والحركة ، ويطول بنا الشرح إذا أردنا تفسير كل عضو فيه فانظر سره في خلقه سبحانه . .

(٤) إقتضت حكمة الله تعالى خلق اللسان حتى يقوم بهما قدر له من وظائف مهمة . واللسان

كأنهما باب يغلق وقت ارتفاع الحاجة إلى فتحه وهو ستر على اللثة والأسنان مفيد للجمال فلولاهما لتشوهت الخلقة وهما معينان على الكلام واللسان للنطق والتعبير عما في ضمير الإنسان وتقليب الطعام والقائه تحت الأضراس حتى يستحكم مضغه ويسهل ابتلاعه.

ثم جعل الأسنان أعداداً متفرقة ولم تكن عظماً واحداً فإن أصاب بعضها ثلم انتفع بالباقي وجمع فيها بين النفع والجمال وجعل ما كان منها معكوساً زائد الشعب حتى تطول مدته مع الصف الذي تحته وجعلها صلبة ليست كعظام البدن لدعاء الحاجة إليها على الدوام وفي الأضراس كبر وتسريف لأجل الحاجة إلى درس الغذاء فإن المضغ هو الهضم الأول.

وجعلت الثنايا والأنياب لتقطيع الطعام وجمالاً للضم فاحكم أصولها وحدد دروسها وبيض لونها مع حمرة ما حولها وجعلها متساوية الرأس متناسبة التركيب كأنها الدر المنظوم.

ثم انظر كيف خلق في الفم نداوة^(٥) محبوسة لا يظهر إلا في وقت الحاجة إليها فلو ظهرت وسالت قبل ذلك لكان تشويهاً للإنسان فجعلت ليبل بها ما يمضغ من الطعام حتى يسهل تسويغه من غير عنت ولا ألم فإذا فقد الأكل عدت تلك الندوة الزائدة التي خلقت للترطيب وبقي منها ما يبل اللهوات والحلق لتصوير الكلام ولئلا يجف فإن جفافه مهلك للإنسان.

ثم انظر إلى رحمة الله ولطفه إذ جعل للأكل لذة الأكل فجعل الذوق في اللسان وغيره من أجزاء الفم ليعرف بالذوق ما يوافقه ويلائمه من المملوذ فيجد في

عضو عضلي قوي يساعد في عملية مضغ الطعام إذ إنه يعمل باستمرار على تحريك الطعام من مكان إلى آخر داخل الفم، ويؤهله لذلك تركيبه العضلي - فيختلط الطعام الممضوغ باللعباب، ثم يساعد اللسان على بلع الطعام، بالإضافة إلى هذا العمل (الميكانيكي) الذي يؤديه اللسان فإن له عملاً أساساً آخر هو القدرة على التذوق والتعرف على خصائص المواد عن طريق البراعم الذوقية التي يقارب عددها عشرة آلاف برعم. تستقر بين خلايا الغشاء المخاطي الذي يغلف اللسان.

(٥) يقصد بها اللعباب الذي تفرزه الغدد اللعابية في الفم، وما لها من أهمية كبرى ودور أساسي في عملية الهضم. ويقدر معلوم حكيم. ولا نتمتع في أي وظيفة من وظائف الجسم إلا ونجد فيها عظمة الصنع والدقة في أداء العمل.

ذلك راحة في الطعام والشراب إذا دعت حاجة إل تناوله وليجتنب الشيء الذي لا يوافقه ويعرف بذلك حد ما تعمل الأشياء إليه في الحرارة والبرودة .

ثم أن الله تعالى شق السمع وأودعه رطوبة مرة يحفظ بها السمع من ضرر الدود ويقتل أكثر الهوام الذين يلجون السمع وحفظ الأذن بصدفة لتجمع الصوت فترده إلى صماخها وجعل فيها زيادة حس لتحس بما يصل إليها مما يؤذيها من هوام وغيره وجعل فيها تعويجات ليتطرد فيها الصوت ولتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتأثر ويتنبه صاحبها من النوم .

ثم انظر إلى إدراكه المشمومات بواسطة ولوج الهواء وذلك سر لا يعلم حقيقته إلا الباري سبحانه إلى غير ذلك .

ثم انظر كيف رفع الأنف في وسط الوجه فأحسن شكله وفتح منخريه وجعل فيه حاسة الشم^(٦) ليستدل باستنشاقه على روائح مطاعمه ومشاربه ليتنعم بالروائح العطرة ويجتنب الخبائث القذرة وليستشق أيضاً روح الحياة غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه ثم خلق الحنجرة وهياًها لخروج الأصوات ودور اللسان في الحركات والتقطيعات فيقطع الصوت في مجاري مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع طريق النطق وجعل الحنجرة مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسبب ذلك الأصوات فلم يتشابه صوتان .

كما خلق بين كل صورتين اختلافاً فلم تشبه صورتان بل يظهر بين كل صورتين فرقان حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت وكذلك يظهر بين كل شخصين فرقان وذاك لسر التعارف فإن الله تعالى لما خلق آدم وحواء خالف بين صورتيهما فخلق منها خلقاً جعله مخالفاً لخلق أبيه وأمه ثم توالى الخلق كذلك لسر التعارف^(٧) .

(٦) الأنف حاسة الشم ويتكون من تجويفين بينهما حاجز بعضه عظم وبعضه غضروف . ويفتح كل تجويف إلى الخارج بمنجر ويتصل من الخلف بالبلعوم .

(٧) إن من أهم الإنجازات التي حققها الإسلام ، هو إرساء دعائم أمة كبيرة من المسلمين قوامها أجناس عديدة وشعوب متباينة في اللون واللغة والعادات والتقاليد تربط بين أفرادها وشائج الأخوة والتضامن دون إعتبار لعنصر أو إلتفات للون ، ودون تمييز أو تفضيل إلا على أساس التقوى وقوة الإيمان ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (سورة الحجرات: الآية (١٣)) .

ثم انظر لخلق اليدين وهما إلى جلب المقاصد ودفع المضار وكيف عرض الكف وقسم الأصابع الخمس وقسم الأصابع بأنامل وجعل الأربعة في جانب والإبهام في جانب فيدور الإبهام على الجميع فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستطيعوا بدقيق الفكر وجهاً آخر من وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربعة في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدروا على ذلك وبهذا الوضع صلح بها القبض والإعطاء فإن بسطها كانت طبقاً يضع عليه ما يريد وإن جمعها كانت آلة يضرب بها وإن ضمها ضمّاً غير تام كانت مغرقة له وإن بسطها وضم أصابعه كانت مجرّفة .

ثم خلق الأظفار على رؤسها زينة للأنامل وعماداً لها من ورائها حتى لا تضعف ويلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل لولاها وليحك بها جسمه عند الحاجة إلى ذلك فانظر أقل الأشياء في جسمه لو عدها وظهرت به حكمة لكان أضعف الخلق وأعجزهم عن دفع ما يؤلمه وجلب ما ينتفع به في ذلك ولم يقدّم له غير الظفر مقامه في حاك جسده لأنه مخلوق لذلك ولغيره فهو صلب كصلابة العظام ولا رخو كرخاوة الجلد يطول ويخلق ويقص ويقصر لمثل ذلك ثم جعله يهتدي به إلى الحاك في حالة نموه ويقظته ويقصد المواضع إلى جهتها من جسده ولو احتاج إلى غيره واستعان به في حكاها لم يعثر الغير على مواضع الحاجة إلا بعد طول تعب .

ثم انظر كيف مد منه الفخذين والساقين وبسط القدمين ليتمكن بذلك من السعي وزين القدمين بالأصابع وجعلها زينة وقوة على السعي وزين الأصابع أيضاً بالأظفار وقواها بها ثم انظر كيف خلق هذا كله من نقطة مهينة ثم خلق منها عظام جسده فجعلها أجساماً قوية صلبة لتكون قواماً للبدن وعماداً له وقدرها تبارك وتعالى بمقادير مختلفة وأشكال متناسقة فمنها صغير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق ثم أودع في أنابيب هذه العظام المخ الرقيق^(٨) مصاناً لمصلحتها وتقويتها .

(٨) المخ الرقيق وهو النخاع الشوكي المتصل بالمخ .

ولما كان الإنسان محتاجاً إلى جملة جسمه وبعض أعضائه لتردده في حاجاته لم يجعل الله سبحانه عظامه عظماً واحداً بل عظاماً كثيرة وبينها مفاصل^(٩) حتى تيسر بها الحركة فقدر شكل كل واحد منها على قدر وفق الحركة المطلوبة بها ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أثبتها بأحد طرفي العظم والصق الطرف الآخر كالرباط .

ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منها ومن الآخر نقراً غائصة فيها توافق لأشكال الزوائد لتدخل فيها وتنطبق فصار الإنسان إذا أراد أن يحرك شيئاً من جسده دون غيره لم يمتنع عليه فلولا حكمة خلق المفاصل لتعذر عليه ذلك .

ثم انظر كيف جعل خلق الرأس مركباً من خمس وخمسين عظماً مختلفة الأشكال والصور وألف بعضها إلى بعض بحيث استوت كرة الرأس كما ترى .

فمنها ستة تختص بالقحف وأربعة وعشرون للحى الأعلى وإثنان للحى الأسفل والبقية من الأسنان بعضها عريض يصلح للطحن وبعضها حاد يصلح للقطع ثم جعل الرقبة مركز الرأس فركبها من سبع خرزات^(١٠) مجوفات مستديرة وزيادات ونقصان لينطبق بعضها على بعض ويطول ذكر الحكمة فيها .

ثم ركب الرقبة على الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربعة وعشرين خرزة وعظم العجز ثلاثة أخرى مختلفة وصل به من أسفله عظم العصعص وهو مؤلف من ثلاثة أخرى .

ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين فجعل عظام في بدن

(٩) وأهمها مفاصل الورك الذي يربط بين رأس عظمة الفخذ - وهي عظمة كروية الشكل تقريباً - وبين الحُق وهو نقرة في عظام الحوض، ويقوم هذا المفصل بوظيفتين رئيسيتين: الأولى: حمل الجسم أثناء الوقوف والحركة. والثانية: تحريك الرجلين في جميع الاتجاهات. ولذلك كان لا بد من الأربطة القوية التي تحيط بهذا المفصل لتقوي الجراب المحيط به مما يمنع خلعه وتلك العضلات القوية التي نراها ممتدة من الحوض إلى عظم الفخذ، من هنا كانت القدرة على الحركة والمرونة العالية التي يمتاز بها:

(١٠) تتألف فقرات العنق من سبع خرزات .

الإنسان مائتان وثمانية وأربعون^(١١) عظماً سوى العظام الصغيرة التي حشي بها خلل المفاصل.

فانظر كيف خلق الباري سبحانه وتعالى ذلك كله من نقطة رقيقة سخيفة والمقصود من ذكر إعدادها تعظيم مدبرها وخالقها وكيف خلقها وخالف بين أشكالها وخصها بهذا القدر المخصوص بحيث لو ازداد فيها واحد كان وبالاً واحتاج الإنسان إلى قلعه ولو نقص منها واحد لإحتاج الإنسان إلى جبره.

فجعل سبحانه وتعالى في هذا الخلق عبرة لأولي الأبصار وآيات بينات على عظمته وجلاله بتقديرها وتصويرها. ثم انظر كيف خلق سبحانه آلات لتحريك العظام وهي العضلات فخلق في بدن الإنسان خمسمائة وتسعة وعشرين عضلة والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وحاجاتها فأربعة وعشرون منها لحركة العين وأجفانها بحيث لو نقصت منها واحدة اختل أمر العين.

وهكذا لكل عضو عضلات بعدد يخصه وقدز يوافقه وأما أمر الأعصاب والعروق والأوردة^(١٢) والشرابين ومنابتها وسعتها فأعجب من هذا وشرحه يطول ثم عجائب ما فيه من المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم.

ثم انظر إلى ما شرف به وخص في خلقه بأنه خلق ينتصب قائماً ويستوي جالساً ويستقبل الأمور بيديه وجوارحه ويمكنه العلاج والعمل ولم يخلق مكبواً على وجهه كعدد من الحيوانات إذ لو كان كذلك لما استطاع هذه الأعمال.

ثم انظر من حيث الجملة إلى ظاهرة هذا الإنسان وباطنه فتجده مصنوعاً صنعة بحكمة يقضي منها بالعجب وقد جعل سبحانه أعضائه تامة بالغذاء والغذاء

(١١) وهو بمجموعه الهيكل العظمي ركيزة الجسم البشري الذي يحمي أعضائه ويحفظ شكله وهو جهاز عظيم في خلقه وتكوينه، وهو عبارة عن نسيج بلاستيكي الشكل ذي تركيبين، أحدهما عضوي والآخر غير عضوي، وهذا النسيج قادر على التغير الجذري مع التقدم في السن وله هذه الخاصية في الشكل والحجم. . . وبقدرة الله وعظمته - سبحانه - تتشكل كل عظمة حسب وظيفتها وإشراكها في تحمل ومقاومة الأعباء الميكانيكية وهي دائبة التكيف مع هذه الوظيفة حسبما تتغير الظروف، وفي جميع سني العمر وأثناء النمو وبعد البلوغ.

(١٢) الأوردة: أوعية دموية تحمل الدم من الأجزاء المتطرفة من الجسم إلى القلب.

متوالٍ عليها لكنه تبارك وتعالى قدرها بمقادير لا يتعداها بل يقف عندها ولا يزيد عليها فإنها لو تزايدت يتوالى الغذاء عليها لعظمت أبدان بني آدم وثقلت عن الحركة وعطلت عن الصناعات اللطيفة ولا تناولت من الغذاء ما يناسبها ومن اللباس كذلك ومن المساكن مثل ذلك .

وكان من بليغ الحكمة وحسن التدبير وقوفها على هذا الحد المقدر رحمة من الله ورفقاً بخلقه فإذا وجدت هذا كله صنعة الله تعالى من قطرة ماء فما ظنك بصنحته في ملكوت السموات والأرض وشمسها وقمرها وكواكبها وحكمته في أقدارها وأشكالها وعدادها وأوضاعها واجتماع بعضها وافتراق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها .

فلا تظن أن ذرة في السموات والأرض وسائر عالم الله ينفك عن حكمة بل ذلك مشتمل على عجائب وحكم لا يحيط بجميعها إلا الله سبحانه وتعالى ألم تسمع قوله سبحانه وتعالى :

﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (١٣) .

إلى آخر ما نبه به وتأمل لو اجتمع الأنس والجن على أن يخلقوا للنطفة سمعاً وبصراً وحياة لم يقدرُوا على ذلك فانظر كيف خلقها سبحانه في الأرحام وشكها فاحسن تشكيلها وقدرها فاحسن تقديرها وصورها فاحسن تصويرها وقسم أجزائها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام في أرجائها وحسن أشكال أعضائها ورتب عروقها وأعصابها ودبر ظاهرها وباطنها وجعل فيها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبباً لبقائها مدة حياتها .

ثم كيف رتب الأعضاء الباطنة من القلب والكبد والمعدة والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كل عضو بشكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص فجعل المعدة لنضج الغذاء عصباً معيناً شديداً لحاجتها وبذلك يمكن تقطيعه وطحنه وجعل طحن الأضراس أولاً معيناً للمعدة على جودة طحنه وهضمه

(١٣) سورة النازعات : الآية (٢٧) .

يقول تعالى محتجاً على منكري البعث في إعادة الخلق بعد بدئه ﴿أَنْتُمْ﴾ أيها الناس ﴿أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ﴾ . يعني بل السماء أشدُّ خلقاً منكم كما قال تعالى : ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ .

وجعل الكبد لإحالة الغذاء إلى الدم فيجذب منه إلى كل عضو من الغذاء ما يناسبه فغذاء العظم خلاف غذاء اللحم وغذاء العروق خلاف غذاء الأعصاب وغذاء الشعر خلاف غذاء غيره وجعل الطاحل والمرارة أو الكلية لخدمة الكبد^(١).

فالطحال لجذب السوداء والمرارة لجذب الصفراء والكلى المائية عنه والمثانة لقبول الماء عن الكلية ثم يخرجها في مجرى الإحليل والعروق والكبد في اتصال الدم منه إلى سائر أطراف البدن وجعل جواهرها اتقن من جوهر اللحم ليصونه ويحصره فهي بمنزلة الظروف والأوعية ثم انظر كيف دبره في الرحم ولطف به ألطافاً يطول شرحها ولا يستكمل العلم بجملتها إلا خالقها ويعجز الواصف عن وصف ما وصل إليه نظره من ذلك.

فمن ذلك جعله فيها لا يحتاج إلى استدعاء ولا يحتاج المولود إلى ما يبين ذلك لا بوعظ ولا تنبيه بل ذلك في الطباع إلى وقت حاجة المولود إلى الإغاثة في غذائه ولولا ذلك لنفرت الأمهات عنه من شدة التعب وكلفة التربية حتى اشتد جسمه وقويت أعضاؤه الظاهرة والباطنة لهضم الغذاء فحيث أنبت له الأسنان عند الحاجة إليها لا قبل ذلك ولا بعده.

ثم انظر كيف خلق الله فيه التمييز والعقل على التدرج إلى حين كماله وبلوغه وانظر وفكر في سر كونه يولد جاهلاً غير ذي عقل وفهم فإنه لو كان ولداً عاقلاً فهماً لأنكر الوجود عند خروجه إليه حتى يبقى حيران تائه العقل إذا رأى ما لا يعرف وورد عليه ما لم يره ولم يعهد مثله.

ثم كان يجد غضاضة أن يرى نفسه محمولاً وموضوعاً معصباً بالخرق ومسجى في المهد مع كونه لا يستغني عن هذا كله لرقه بدنه ورطوبته حين يولد.

ثم كان لا يوجد من الرقة والحلاوة والمجبة في القلوب ما يوجد للصغير لكثرة اعتراضه بعقله واختياره لنفسه فتبين أن ازدياد العقل والفهم فيه على التدرج أصلح به.

(١٤) الكبد هو أكبر غدة في الجسم، ويفرز مادة الصفراء التي تسيل إلى الأمعاء وتقوم بدور هام في عمليات هضم الدهون ويقوم بتحويل سكر الجلوكوز الذائب في الدم إلى نوع من النشا يسمى جليكوجين. ويخزن الكبد أيضاً فيتامين (د) المضاد لمرض لين العظام.

أفلا يرى كيف أقام كل شيء من الخلقة على غاية الحكمة وطريق الصواب واعلمه تقلب الخطأ في دقيقه وجليله ثم انظر فيما إذا اشتد خلق فيه طريقاً وسبباً للتناسل وخلق في وجهه شعر ليميزه عن شبه الصبيان والنسوان ويجمله ويستتر به غصون وجهه وعند شيخوخته وإن كانت أنثى أبقى وجهها نقياً من الشعر لها بهجة ونضارة تحرك الرجال لما في ذلك من بقاء النسل.

فكر الآن فيما ذكرناه ودبره سبحانه في هذه الأحوال المختلفة هل ترى مثل هذا يمكن أن يكون مهماً أرايت لو لم يجر له الدم غذاء وهو في الرحم ألم يكن يذوي ويهلك ويجف النبات إذا انقطع عنه الماء.

ولو لم يزعجه المخاض^(١٥) عند استكمال ألم يكن يهلك ببقائه في الرحم هو وأمه ولو لم يوافه اللبن عند ولادته ألم يكن يموت جوعاً وعطشاً أو يغذى بما لا يوافق ولا يصلح عليه بدنه ولو لم يخلق له الأسنان في وقتها ألم يكن يمتنع عليه مضغ الطعام وإزدراده ويقيم على الرضاع ولا يشتد جسمه ولو لم يخرج له شعر الوجه لبقى في هيئة النساء والصبيان فلا ترى له هيئة ولا جلالة ولا وقار ومن ذا الذي يرصده حتى يوفيه بكل هذه المآرب في وقتها إلا الذي أنشأه بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً وتفضل عليه ومن عليه بكل هذه النعم.

فكر في شهوة الجماع الداعية لإحيائه والآلة الموصلة إلى الرحم المنطقية والحركة الموجبة لإستخراج النطفة وما في ذلك من التدبير المحكم.

ثم فكر في جملة أعضاء البدن وهيئة كل عضو منها للأرب الذي أريد منها فالعينان للإهتمام بالنظر.

واليدان للعلاج والجذب والدفع.

والرجلان للسعي.

والمعدة لهضم الطعام.

(١٥) إن عملية المخاض عند المرأة عند إستكمال نمو الجنين فيها من الحكمة والعبرة والتدبير ما يعجز الإنسان عن فهمه وشرحه. فشعور الأم بالألام الحادة والإقتراب من الموت يتقلب فجأة إلى فرح وسعادة عند سماع بكاء الطفل في إطلالته على الدنيا. . إنها أخرجت جسماً وروحاً من جسمها وروحها لإستمرارية دورة الحياة، والله عليم خبير.

والكبد للتخليص والتمييز.

والفم للكلام ودخول الغذاء والمنافذ لدفع الفضلات.

وإذا تأملت كذلك مع سائر ما في الإنسان وجدته قد وضع على غاية الحكمة والصواب.

فكر في وصول الغذاء إلى المعدة^(١٦) حتى ينضجه ويبعث صفوه إلى الكبد في عروق دقاق قد جعلت كالمصفاة للغذاء ولكيلا يصل إلى الكبد منه شيء غليظ خشن فينكؤها فإنها خلقت دقيقة لا تحمل الغث فتقبله بإذن الله دماً وتنفذ إلى سائر البدن في مجار مهياة لذلك فيصل إلى كل شيء من ذلك ما يناسبه من يابس ورخو وغير ذلك فتبارك الله رب العالمين.

ثم ينفذ ما يكون من خبث وفضول إلى معابض وأعضاء أعدت لذلك كما ذكرنا قبل هذا فكونها كالأوعية تحمل هذه الفضلات لكيلا تنتشر في البدن فتسقمه ثم انظر هل تجد في خلق البدن شيئاً لا معنى له هل خلق البصر إلا ليدرك الأشياء والألوان فلو كانت الألوان ولم يكن بصر يدركها هل كان في الألوان منفعة ولو لم يكن لخلق الأبصار نور خارج عن نورها ما كان ينتفع بالبصر وهل خلق السمع إلا ليدرك الأصوات.

فلو كانت الأصوات ولم يكن سمع يدركها لم يكن في الأصوات منفعة كذلك سائر الحواس.

فكر في أشياء جعلت بين الحواس والمحسوسات لا يتم الحس إلا بها منها الضياء والهواء فلو لم يكن ضياء تظهر فيه المبصرات لم يدركها ولو لم يكن هواء يؤدي الصوت إلى السمع لم يكن السمع يدرك الصوت. فكر فيمن عدم البصر والسمع وما يناله من الخلل فإنه لا ينظر أين يضع قدمه ولا يدري ما بين يديه ولا

(١٦) المعدة. وهي جزء متسع من المسلك الهضمي، يقع في أعلى البطن، معظمه إلى اليسار تحت الكبد والحجاب الحاجز الذي يفصله عن القلب والرئة اليسرى وتتدلى المعدة من أعلى المرئ ومن أسفل بالمعي الإثني عشر، وجدار المعدة يتألف من غشاء مخاطي هو الذي يفرز العصارة الهضمية. والمعدة تختزن الطعام لمدة يجري في أثناءها البدء في عمليات الهضم. وإذا دخل المعدة ما يهيج الغشاء المخاطي فإنها لا تستريح إلا بالقيء

يفرق بين الألوان ولا يدري بهجوم آفة أو عدو ولا سبيل له أن يتعلم أكثر الصناعات وأما من عدم السمع فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاوره ويعدم لذة الأصوات المستحسنة والألحان المطربة وتعظم المؤونة على من يخاطبه حتى ينصر منه ولا يسمع شيئاً من أخبار الناس وأحاديثهم حتى يصير كالغائب وهو شاهد وكالميت وهو حي .

وأما من عدم العقل فهو شر من البهائم فانظر كيف صارت هذه الجوارح وهذه الأوصاف التي بها صلاح الإنسان محصلة ومبلغه لجميع مآربه ومتممة لجميع مقاصده وإذا فقد شيئاً اختل وعظم مصابه ومن بلى بفقد شيء منها فهو تأديب وموعظة وتعريف بقدر نعمة الله في حقه وحق أمثاله ولينال بصبره على ذلك حظاً في الآخرة فانظر إلى رحمة الله كيف توجد في العطاء والمنع .

ثم فكر في الأعضاء التي خلقت أفراداً وأزواجاً وما في ذلك من الحكمة والصواب فالرأس مما خلق فرداً كثيراً من الحواس قد حوتها رأس واحدة ولو زاد عليه شيء كان ثقلًا لا يحتاج إليه فإن كان قسمين فإن تكلم أحدهما بقي الآخر معطلاً لا حاجة إليه وإن تكلم منهما جميعاً بكلام واحد كان أحدهما فضلة لا يحتاج إليها وإن تكلم من أحدهما بخلاف ما تكلم به من الآخر لم يدر السامع مراده من ذلك وإنما الذي يأخذ به السامع هو ما كان واضحاً واليدان خلقتا أزواجاً ولم يكن للإنسان خير في أن يكون بيد واحدة لاختلال ما يعالجه من الأمور فإنك ترى من شلت إحدى يديه ما يكون عنده من النقص وإن يكلف بشيء لم يحكمه ولا يبلغ ما يبلغ صاحب اليدين وحكمة الرجلين ظاهرة .

فكر في تهئية آلات الصوت فالحنجرة كالأنبوبة لخروج الصوت واللسان والشفتان والأسنان لإصاغة الحروف والفم ألا ترى أن من سقطت أسنانه أو أكثرها كيف يحصل الخلل في كلامه .

ثم انظر إلى ما في الحنجرة من المنفعة لسلوك النسيم منها إلى الرئة فتروح على الفؤاد بهذا النفس المتتابع وما في اللسان من تقليب الطعام وإعائته على تسويغ الطعام والشراب وما في الأسنان من المعونة أيضاً ثم هي كالسند للشفتين تمسكهما وتدعمهما من داخل الفم وبالشفتين يرتشف الشراب حتى يكون ما يدخله إلى الجوف بقصد وبقدر ما يختاره الإنسان ثم هما على الفم كالباب فقد تبين أن كل عضو من هذه الأعضاء ينصرف إلى وجوه من المآرب وضروب من المصالح إن

زاد أفسد وإن نقص أفسد فذلك تقدير العزيز العليم .

فكر في الدماغ إذا كشف عنه فإنك تجده قد لف بعضه فوق بعض ليصونه من الأعراض وأطبقت عليه الجمجمة والشعر ستر لها وجمال وليبعد عنها ما يؤذيها من حر وبرد وغير ذلك فحصى سبحانه وتعالى الدماغ هذا التحصين لعلمه بأنه مهم وأنه مستحق لذلك لكونه ينبوع الحس .

ثم انظر كيف غيب الفؤاد في جوف الصدر وكساه المدرعة التي هي غشاؤه واتقنها ونحصنه بالجوانح وما عليها من اللحم والعصب لشرفه وإن ذلك اللائق به .

ثم انظر كيف جعل في الحلق منفذين أحدهما للصوت وهو الحلقوم والواصل إلى الرئة والآخر للغذاء وهو المريء الواصل إلى المعدة وجعل على الحلقوم طبقاً يمنع الطعام أن يصل إليه ثم جعل الرئة مروحة للفؤاد لا تقترب ولا تخل تأخذ وترد بغير كلفة لئلا تنحصر الحرارة في القلب فتؤدي إلى التلف ثم ملأ الجو هواء لهذه المصلحة ولغيرها .

ثم انظر كيف جعل لمنافذ البول والغائط أسراعاً يضبطها لكي لا يجري جرياناً دائماً فيفسد على الإنسان عيشته .

ثم انظر كيف جعل لحم الفخذين كثيراً كثيفاً ليقى الإنسان من ألم الجلوس على الأرض كما يألم الجلوس من نحل جسمه وقل لحمه إذا لم يكن بينه وبين الأرض حائل .

انظر لو كان ذكر الرجل مسترخياً أبداً كيف يصل الماء إلى موضع الخلق ولو كان منعظاً أبداً كيف يكون حاله في تصرفاته وهو كذلك بل جعله مستوراً كأنه لم تخلق له شهوة .

ثم انظر أليس أنه من حسن التدبير في البناء أن يكون الخلاء أستر موضع في الدار فلهذا اتخذ المنفذ المهيأ لقضاء حاجة الإنسان في أستر موضع من جسده مغيب فيه تلتقي عليه فخذاه بما عليهما من اللحم فتواريه به ويخفى ذكره وذلك مخصوص بالإنسان لشرفه .

ثم انظر في خلق الشعر والأظفار لما كانا يطولان وفي تقصيرها مصلحة جعلها عديمي الحس حتى ينال الإنسان ألم عند التزين بقصهما ولولا هذه الحكمة لكان

بين أمرين أما أن يدعهما على حالهما فيتشوه خلقه أو يزيل ذلك فيتألم بإزالته .

ثم تفكر في الشعور لو نبتت في العين لأعمت البصر أو في الفم لنفصت الأكل والشرب أو في راحة الكف لفقدت لذة اللمس وبعض الأعمال أو في الفرج لكدرت لذة الجماع مع قبول هذه المواضع لنباتها فيها فسيحان المدبر المنعم بهذه النعم .

فانظر كيف قصد بهذا الخلق طريق الصواب وتجنب الخطأ والضرر ثم فيما جبل عليه الإنسان من الإحتياج إلى المطعم والنوم والجماع وما في ذلك من التدبير المحكم فقد جعل في طبعه محرك يقتضيه ويستحثه فالجوع والعطش يقتضي طلب الطعام الذي به حياته وكذلك الشراب الذي به قوامه والنوم فيه راحة البدن وعموم القوى والشبق يقتضي الجماع الذي به دوام النسل وبقاؤه فلو كان الإنسان إنما يتناول الطعام والشراب لمعرفة بالحاجة إليه ولم يجد من طباعه ما يلجئه إليه لاشتغل بأسباب ضرورته فتتخل قواه ويهلك كما أنه قد يحتاج إلى دواء يكرهه وفيه صلاحه وليس في جبلته داعية له فيدافع في تناوله فيمرض أو يموت فكذلك لو كان يفعل النوم ويدخله على جسمه باختياره لتشاغل عنه ببعض مهماته فيهلك جسمه بالتعب والنصب .

وكذلك لو كان إقدامه على الجماع إنما هو لرغبة حصول الولد لانقطع النسل لما يعارضه من الأسباب المشغلة فانظر كيف جعل في بالطبع ما يضطره إلى حصول هذه الفوائد .

انظر كيف رتب هذه القوى بهذا الترتيب المحكم العجيب فصار البدن بما فيه بمنزلة دار الملك فيها حشم وقوم موكلون بالدار فواحد لإمضاء حوائج الحشم وإيراد ماء لهم وآخر لقبض ما يرد وخزنه إلى أن يعالج ويهيأ وآخر لإصلاح ذلك وتهيئته وإصلاحه مما قيل وآخر لكسح ما في الدار من الأقدار وإخراجه فالملك في هذا المثل هو الخالق العليم سبحانه والدار هي البدن والحشم هي الأعضاء والقوم في هذه القوى الأربع التي هي النفس وموقعها من الإنسان بمعنى الفكر والوهم والعقل والحفظ والغضب رغب غير ذلك أرأيت لو نقص من الإنسان من هذه الصفات الحفظ وحده كيف كان يكون حاله إن كان لا يحفظ ما له وما عليه وما أصدر وما أورد وما أخذ وما رأى وما سمع وما قال وما قيل له ولم يذكر من أحسن إليه ولا من أساء له ولا من نفعه ممن ضره وكان لا يهتدي لطريق ولو سلكه ولا لعلم ولو درسه

ولا ينتفع بتحريره ولا يستطيع أن يعتبر بمن مضى .

فانظر إلى هذه النعم كيف موقع الواحدة منها فكيف جميعها . وأعجب من نعمة الحفظ نعمة النسيان فلولا النسيان ما سلا الإنسان عن مصيبة فكان لا ينقص له حسرة ولا يذهب عنه حقد ولا يستمتع بشيء من لذات الشهوات الدنيوية مع تذكر الآفات والفجائع المغضبات وكان لا يمكن أن يتوقع غفلة من ظالم ولا فترة ولا ذهولاً من حاسد أو قاصد مضرة .

فانظر كيف جعل الله فيه سبحانه الحفظ والنسيان^(١٧) وهما متضادان وجعل للإنسان في كل منهما ضرباً من المصالح . ثم انظر إلى ما خصه به دون غيره من الحيوان من الحياء فلولا لم تقل العثرات ولم تقض الحاجات ولم يقر الضيف ولم يرغب في الجميل فيفعل ولا يتجافى عن القبيح فيترك حتى أن كثيراً من الأمور الواجبة إنما تفعل بسبب الحياء من الناس فترد الأمانات وتراعى حقوق الوالدين وغيرهما ويعف عن فعل الفواحش إلى غير ذلك من أجل الحياء فانظر ما أعظم موقع هذه النعمة في هذه الصفة .

وانظر ما أنعم الله به من النطق الذي يميز به عنه البهائم فيعبر بما في ضميره ويفهم من غيره ما في نفسه . وكذلك نعمة الكتابة التي تفيد أخبار الماضين للباقيين وأخبار الباقيين للآتين وبها تخلص في الكتب العلوم والآداب ويعلم الناس ذكر ما يجري بينهم في الحساب والمعاملات ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ودرست العلوم وضاعت الفضائل والآداب وعظم الخلل الداخل على الناس في أمورهم بسبب عدمها فإن قلت إن الكلام والكتابة مكتسبة للإنسان وليست بأمر طبيعي ولذلك تختلف الخطوط بين عربي وهندي ورومي إلى غير ذلك وكذلك الكلام هو شيء يصطلح عليه فلذلك اختلف .

(١٧) يعتبر الدماغ - مصدر الذكاء والمكان الذي تحفظ فيه الذاكرة - أهم وأعقد أجهزة الجسم ، وهو عبادة عن نسيج شديد الرخاوة والليونة ، وتؤمن عظام الجمجمة القوية الحماية للدماغ من المؤثرات الخارجية .

إن عملية حفظ المعلومات في الدماغ ثم استرجاعها عند الحاجة ، عملية معقدة وتتم - أساساً - في القشرة الدماغية المخية ، وهناك مناطق في الدماغ لخزن المعلومات للمدى القصير ، ومناطق أخرى مخصصة لخزن المعلومات للمدى الطويل ، وفي كل منهما ضرباً من المصالح فسبحان المنعم بهذه النعم .

قلنا ما به تحصل الكتابة من اليد والأصابع والكف المهيأ للكتابة والذهن والفكر الذي يهتدي به ليس بفعل الإنسان ولولا ذلك لم يكن ليكتب أبداً فسبحان المنعم عليه بذلك وكذلك لولا اللسان والنطق الطبيعي فيه والذهن المركب فيه لم يكن ليتكلم أبداً فسبحان المنعم عليه بذلك.

ثم انظر إلى حكمة الغضب المخلوق فيه يدفع عن نفسه به ما يؤذيها وما خلق فيه من الحسد فبه ما يسعى في جلب ما ينتفع به غير أنه مأمور بالإعتدال في هذين الأمرين فإن جاوز الحد فيهما التحق برتبة الشياطين بل يجب أن يقتصر في حالة الغضب عن دفع الضرر وفي الحسد على الغبطة وهي إرادة ما ينفعه من غير مضرة تلحق غيره.

ثم انظر ما أعطى وما منع مما فيه أيضاً صلاحه فمن ذلك الأمل فبسببه تعمر الدنيا ويدوم النسل ليرث الضعفاء عن الأقوياء منافع العمارة فإن الخلق أول ما يخلق ضعيف فلولا أنه يجد آثار قوم أصلوا وعمرؤا لم يكن له محل يأوي إليه ولا آلة ينتفع بها فكان الأمل سبباً لعمل الحاضرين ما يقع به إنتفاع الآتين وهكذا يتوارث إلى يوم الدين ومنع الإنسان من علم أجله ومبلغ عمره لمصلحة فإنه لو علم مدة حياته وكانت قصيرة لم تهنه الحياة ولم ينشرح لوجود نسل ولا لعمارة أرض ولا لغير ذلك ولو علمها وكانت طويلة لانهمك في الشهوات وتعدى الحدود واقتحم المهلكات ولعجز الوعاظ عن إيقافه وزجره عما يؤديه إلى إتلافه فكان في جهله بمدة عمره مصلحة حصول الخوف بتوقع هجوم الموت ومبادرة صالح الأعمال قبل الفوت.

ثم انظر إلى ما ينتفع به مما فيه مصالحه وملاذه من أصناف الأطعمة على اختلاف طعومها وأصناف الفواكه مع اختلاف ألوانها وبهجتها وأصناف المراكب ليركبها ويحصل منافعها وطيور يلتذ بسماعها ونقود وجواهر يقتنيها ويصل إلى أغراضه ويجدها في مهماته وعقاقير يستعملها لحفظ صحته وبهائم لمأكله ولغير ذلك من أموره من حرث وحمل وغير ذلك وأزهار وغيرها من العطريات يتنعم بروائحها وينتفع بها وأصناف من الملابس على اختلاف أجناسها وكل ذلك ثمرة ما خلق فيه من العقل والفهم ماذا ركب الله فيه من العجائب؟

ومن الحكمة البالغة اختلاف العباد في تملك ما ينتفع به بنو آدم لتمييز منهم

الفقير عن الغني فيكون ذلك سبباً لعمارة هذه الدار ويشغل الناس بسبب ذلك عما يضرهم في غالب الأحوال فمثالهم فيما اشتغلوا به مثال الصبي فإنه يشتغل لنقص عقله فيما يضر به نفسه ولا يتفرغ فيكون فراغه وبالأعلى عليه وكم عسى أن يعد العاد من الحكم واللطائف التي يقصد بها قوام العالم وبقاؤه إلى الأجل المعلوم وهي مما لا تدخل تحت حد ولا يحصرها عد ولا يعلم منتهى حقائقها وإحصاء جملتها إلا الحكيم العليم الذي وسعت رحمته وعلمه كل شيء وأحصى كل شيء عدداً.

خاتمة هذا الباب

اعلم أن الباري سبحانه وتعالى شرف هذا الآدمي وكرمه فقال سبحانه :
 ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
 وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (١٨).

فكان من اعسم - شرفه به وكرمه العقل الذي تنبه به على البهيمة وألحقه
 بسببه بعالم الملائكة حتى تأهل به لمعرفة باريه ومبدعه بالنظر في مخلوقاته
 والإستدلال به على معرفة صفاته بما أودعه في نفسه من حكمة وأمانة قال الله
 العليم :

(١٨) سورة الإسراء : الآية (٧٠).

يخبر تعالى عن تشريعه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات
 وأكملها، كقوله تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي يمشي قائماً منتصباً على
 رجله، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوان يمشي على أربع، ويأكل بفتح، وجعل له سمعاً
 وبصراً وفؤاداً يفقه بذلك كله ويتفهم به، ويفرق بين الأشياء وخواصها ومضارها في الأمور
 الدنيوية والدنيوية، ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ﴾ أي على الدواب من الأنعام والخيول والبغال، وفي
 البحر أيضاً على السفن الكبار والصغار، ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي من زرع وثمار
 ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهية اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس
 الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها مما يصنعونه لأنفسهم
 ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي، ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا
 تَفْضِيلًا﴾ أي من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات. وقد استدل بهذه الآية الكريمة على

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (١٩).

فكان نظره في نفسه وفيما أودع الباري سبحانه فيه من العقل الذي يقطع بوجوده فيه ويعجز عن وصفه من أعظم الدلالات عنده على وجود باريه ومدبره وخالقه ومصوره فإنه ينظر في العقل وكيف فيه التدبير وفنون العلم ومستقر المعرفة وبصائر الحكمة والتمييز بين النفع والضرر وهو مع القطع بوجوده لا يرى له شخصاً ولا يسمع له حساً ولا يجس له مجساً ولا يشم له ريحاً ولا يدرك له صورة ولا طعماً وهو مع ذلك أمر ومطاع وراج ومفكر ومشاهد للغيوب ومتوهم للأمر اتسع له ما ضاق عن الأبصار ووسع له ما ضاقت عنه الأوعية يؤمن بما غيبته حجب الله سبحانه مما بين سمواته وما فوقها وأرضه وما تحتها حتى كأنه شاهده أبين من رأى العين فهو موضع الحكمة ومعدن العلم كلما ازداد علماً إزداد سعة وقوة يأمر الجوارح بالتحرك فلا يكاد أن يميز بين الهمة بالحركة وبين التحرك بسرعة الطاعة أيهما أسبق وإن كانت الهمة قبل وهو مع تدبيره وعلمه وحكمته عاجز عن معرفة نفسه إذ لا يمكنه أن يصف نفسه بنفسه بصفه وهيئة أكثر من الإقرار بأنه مسلم للذي وصفه للعلم به ومقر بالجهل بنفسه وهو مع جهله بنفسه عالم حكيم يميز بين لطائف التدبير ويفرق بين دقائق الصنع.

وتجري الأمور وقد تدبرها ويتوهم العواقب ويمثلها ويدل على الأمور على اختلافها فدل جهله بنفسه وعلمه بما يدبر ويميز أنه مركب مصنوع مصور ومدبر مقهور لأنه مع حكمته واتقاد بصيرته عاجز مهين يريد أن يذكر الشيء فينساه ويريد أن ينساه فيذكره ويريد أن يسر فيحزن ويريد أن يغفل فيذكر ويريد أن يتنبه ويتيقظ فيسهو ويغفل دلالة على أنه مغلوب مقهور وهو مع ما علم جاهل بحقائق ما علم ومع ما دبر لا يدري كم مدى مبلغ صوته ولا كيف خروجه ولا كيف إتساق حروف كلامه ولا كم مدى مبلغ نظره ولا كيف ركب نوره ولا كيف أدرك الأشخاص ولا كم قدر قوته ولا كيف تركب إرادته وهمته فاستدل بعلمه وجحدته عن حقيقة ما علم أنه مصنوع بصنعة متقنة وحكمة بالغة تدل على الصانع الخالق المريد العليم عز وجل.

ثم خلق في الإنسان الهوى موافقاً لطباعه فإن استعمل نور العقل فيما أمر به

أفصلية البشر على جسس الملائكة. مختصر ابن كثير.

(١٩) سورة الذاريات الآية (٢١).

قال قتادة: من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة.

ورد مورد السلامة وفاز غداً بدار الكرامة وإن استعمله في أغراض نفسه وهوها حجب عن معرفة أمور لا يدركها غيره مع ما هو متوقع له في الدار الآخرة من الثواب والحجاب والعقاب وهو الآلة له في عمل الصنائع وتقديرها على نحو ما قدرها ودبرها في ذهنه وتخيله واستنباط ما يستنبط بدقيق الفكر ومعرفة مكارم الأخلاق الموجودة في كل أمة وزمان أو استحسان ما يحسن في عوائد العقلاء والفضلاء وتقبيح ما يقبح عندهم بحكم الإعتياد.

فانظر ما شرف هذا الإنسان أن خلق فيه ما تفيده هذه المعارف فإن الأواني تشرف بشرف ما يوضع فيها ولما كانت قلوب العباد هي محل للمعرفة بالله سبحانه شرفت بذلك ولما سبق في علم الباري سبحانه وإرادته وحكمه بمصير الخلق إلى دار غير هذه الدار ولم يجعل في قوة عقولهم ما يطلعون به على أحكام تلك الدار بل كمل لهم سبحانه هذا النور الذي وهبهم إياه بنور الرسالة إليهم فأرسل الأنبياء صلوات الله عليهم مبشرين لأهل طاعته منذرين لأهل معصيته فمد لهم بالوحي وهياهم لقبوله وتلقيه فكانت أنوار ما جاء به الوحي من عند الله بالنسبة إلى نور العقل كالشمس بالإضافة إلى نور النجم فدلوا العباد على مصلح دنياهم فيما لا تستقل بإدراكه عقولهم وأرشدوهم إلى مصالح آخرهم التي لا سبيل للعباد أن يعرفوها إلا بواسطةهم وأظهر لهم سبحانه من الدلائل على صدق ما جاؤا به ما أوجب الأذعان والإنقياد لصدق أخبارهم فتمت بذلك نعمة الله على عباده وظهرت كرامته وثبتت حجته عليهم.

فانظر ما أشرف الآدمي ونسله الذين ظهرت منه هؤلاء الفضلاء الذين هم قابلون هذه الزيادات الفاضلة ثم تضافرت الشرائع^(٢٠) التي هي كالشمس وأنوار

(٢٠) من هذه الشرائع، الصوم - وهو عبادة روحية حالصة، وليس لهذه العبادة مظهر إيجابي يمكن الإستهداء به لأدائها، كما هو شأن سائر العبادات والشعائر لأن قوامها كف النفس عن مشتهياتها الحلال، فكانت عبادة سرية بين العبد وربّه، تمثل سرّيتها عنصر المراقبة المستكن في ضمير المؤمن لله تعالى.

فالحكمة الغائية للصوم موصولة بأصالة عقيدة التوحيد وما يستوجب ذلك من الإيمان بعقائد الإسلام وبالقيم التي تنبع منها، وإمتثال أمر الله تعالى في كل ما شرع، مما يتعلق بصلاح الفرد نفسه خاصة وما يتعلق بالأمة، بل والمجتمع البشري عامة.

كما أن الصوم مجاهدة نفسية واقعية تؤول إلى تجرد روحي، وفتيح عقلي، وإشراق

العقول التي هي كالنجم فتمت سعادة من سبق له من الله الحسنى وشقاوة من كذب ولم يرد إلا الحياة الدنيا.

ثم أن الله تبارك وتعالى منّ على الإنسان بأن خصه برؤيا يراها في منامه أو في عينه كشبه المنام بمثل له فيهم بأمثلة معهودة من جنس ما يعرفه وهي مبشرة أو منذرة^(١) له لما يتوقعه بين يديه كل ذلك مواهب وكرامات من وجود الله سبحانه وجعل استقامته على الطاعة في قلبه وجوارحه سبباً لصدقها في غالب الأمر ليتعظ أو يقدم على الأمور أو يحجم عنها وهي الأمور التي انفرد الله بعلم العقابة فيها واطلع على بعض الأمور منها من يشاء.

نفسى، وقد إتخذ الله تعالى وسيلة فعالة لتمكين العقل والنفس من إجتلاء تلك البينات التي قوامها شواهد وأدلة إفناعية سهص بالحقائق الكبرى في هذا الوجود وعلى رأسها الإيمان بالخالق البارىء جلّ وعلا، وما يفيض عنها من القيم العليا والمثل الخالدة: من الحق، والعدل، والحربة، والمساواة في الإعترار الإنساني، والرحمة والإحسان، والفضل، والضحية والجهد، وإنكار الذات.

(٢١) إن الله سبحانه هو الحالى لجميع ما يُرى في المام من خير أو شر، وإن اخلاف الموجب للغسل مضاف إلى الشيطان.

وقال الإسناذ أبو سعد الواعظ (رضي الله عنه) أما بعد، فإنه لما كانت الرؤيا صحيحة في الأصل منبهة عن حقائق الأعمال، منبهة على عوافب الأمور إذ منها الآمرات والزاجرات، ومنها المبشرات والمذدرات وكيف لا تكون كذلك وهي من بقايا النبوة، فإن من الأنبياء (صلوات الله عليهم) من كان وحيه الرؤيا فهو نبي. (عن كتاب ابن سيرين).

باب في حكمة خلق الطير

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ (١).

اعلم رحمك الله أن الله تعالى خلق الطير وأحكمه حكمة تقتضي الخفة للطيران ولم يخلق فيه ما يثقله وخلق فيه ما يحتاج إليه وما فيه قوامه وصرف غذاءه فقسم لكل عضو منه ما يناسبه فإن كان رخواً أو يابساً أو بين ذلك انصرف إلى كل عضو من غذائه ما هو لائق به فخلق للطير الرجلين دون اليدين لضرورة مشيه وتنقله وإعانة له في ارتفاعه عن الأرض وقت طيرانه وجعلها واسعة الأسفل ليثبت في موطن على الأرض وهي خف فيه أو بعض أصابع مخلوقة من جلد رقيق صلب من نسبة جلد ساقيه وجعل جلد ساقيه غليظاً متقناً جداً ليستغني به عن الريش في الحر والبرد.

وكان من الحكمة خلقه على هذه الصفة لأنه في رعيه وطلب قوته لا يستغني عن

(١) سورة النحل: الآية (٧٩).

بِه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض كيف جعله يطير بجناحين بين السماء والأرض في جو السماء ما يملكه هناك إلا الله بقدرته تعالى التي جعل فيها قوى تفعل ذلك وسخر الهواء يحملها. مختصر ابن كثير.

مواضع فيها الطين والماء فلو كسيت ساقاه بريش لتضرر ببلله وتلويثه فأغنا سبحانه عن الريش في موضع لا يليق به حتى يكون مخلصاً للطيران وما خلق من الطير ذا أرجل طوال جعلت رقبته طويلة لينال غذاءه من غير حرج بها إذ لو طالت رجلاه وقصر عنقه لم يمكنه الرعي لا في البراري ولا في البحار حتى ينكب على صدره وكثيراً ما يعان بطول المنقار أيضاً مع طول العنق ليزداد مطلبه عليه سهولة ولو طال عنقه وقصرت رجلاه أثقله عنقه واختل رعيه وخلق صدره وجعل دائره ملفوفاً مرتباً على عظم كهيئة نصف دائرة حتى يخرق في الهواء بغير كلفه .

وكذلك رؤوس أجنحته مدورة إعانة له على الطيران وجعل لكل جنس من الطير منقاراً يناسب رعيه ويصلح لما ينغذى به من تقطيع ولقط وحفر وغير ذلك فمنه مخلب للتقطيع خص به الكواسر وما قوته اللحم ومنها عريض مشرشر جوانبه تنطبق على ما يلتقطه انطباقاً محكماً ومنه معتدل اللقط لأكل الخضر ومنه طويل المنقار للحفر وجعله صلباً شديداً شبه العظم وفيه ليونه ما هي في العظم لكثرة الحاجة إلى استعماله وهو مقام الأسنان في غير الطير من الحيوان .

وقوى سبحانه أصل الريش وجعله قصباً منشوباً فيما يناسبه من الجلد الصلب في الأجنحة لأجل كثرة الطيران ولأن حركة الطيران قوية فهو محتاج إلى الأتقان لأجل الريش وجعل ريشه وقاية مما يضره من حر أو برد ومعونة لتخلله الهواء للطيران وخص الأجنحة بأقوى الريش وأثبتته وأتقنه لكثرة دعاء الحاجة إليه وجعل في سائر بدنه ريشاً غيره كسوة ووقاية وجمالاً له وثبت أصل جميعه لأنه جبيرته وجماله وجعل في ريشه من الحكمة أن البلل لا يفسده والأدران لا توسخه فإن أصابه ما كان أيسر انتفاض يطرد عنه بلله فيعود إلى خفته وجعل له منفذاً واحداً للولادة وخروج فضلاته لأجل خفته وخلق ريش ذنبه معونة له على استقامته في طيرانه فلولاه لما مالت به الأجنحة في حال الطيران يميناً وشمالاً فكان له بمنزلة رجل السفينة الذي يعدل بها سيرها وخلق في طباعه الحذر وقاية لسلامته ولما كان طعامه يبتلعه بلعاً بلا مضغ جعل لبعضه منقاراً صلباً يقطع به اللحم ويقوم به مقام ما يقطع بالمديّة وصار يزدرد ما يأكله صحيحاً وأعين بفضل حرارة في جوفه تطحن العنب وغيره فإنه يخرج من بطون الحيوان صحيحاً وينسحق في أجواف الطير ثم أنه خلقه يبيض ولا يلد لئلا يثقل عن الطيران فإنه لو خلقت فراخه في جوفه حتى يكمل خلقها لثقل بها وتعوق بها عن النهوض للطيران .

أفلا ترى كيف دبر كل شيء من خلقه بما يليق به من الحكمة انظر إلى من أنزله وألهمه الرقاد على بيضه فيحضنه مدة الحضانة^(٢) من ألهمه أن يلتقط الحب فإذا ماع في باطنه غذى به فراخه وهذا نوع من الطير ثم انظر هذا كيف احتمل هذه المشقة وليست له روية ولا فكر في عاقبة ولا أمل يأمله في أفراخه كما يأمل الإنسان في ولده من العز والرغد وبقاء الذكر فهل هذا قطعاً إلا الهام من فعل الله سبحانه .

انظر كيف ألهم معرفة حمل الأنثى منه بالبيض فالهموا حيثئذٍ حمل الحشيش وتوطئته . في موضع التحضين والولادة لتكون الرطوبة والتوطئة تحفظ البيض ويكون البيض محفوظاً في المهاد الذي يمهدهونه ويستحسنونه في حال تحضينه .

انظر إلى الحمام كيف ألهم معرفة كمال الفرخ وانتهاء تحضينه للبيض حتى يكشف عن الفرخ ويخرجه وإن اتفق في البيض فساد بسبب عرق قام وتركه ثم انظر الهامه بما يزق به فرخه فإنه أولاً يزقه بالريح^(٣) لتستعد حوصلته لقبول ما يوضع فيها ثم بعد ذلك يزقه من أول هضم ثم إذا ماع الغذاء في حوصلته يزقه به حتى يدرجه ويفعل ذلك مراراً حتى يملأ حوصلته فإنه لو أوصله إليه حباً صحيحاً لعجز عن هضمه لضعف جسده فانظر إن كان هذا من فعل الطير وحكمته .

ثم انظر عند خروج الفرخ من البيض كيف يسنده إلى جنبه لئلا يفقد الحرارة دفعة واحدة فيضر ذلك به ومن الطير ما يخلق على هيئة إخرى لحكمة أخرى ولتعلم أن قدرة الله لا تنحصر في نوع واحد بل كل حال له حكم يقوم بمصلحة ذلك الشيء وذلك أن الدجاج ما فيهم أهلية الزق بل جعلت فراخهم يلتقطون غذاءهم عند خروجهم من البيضة . ثم انظر في الحمام الذكر والأنثى كيف يتداولان على التسخين خوف أن يفسد بيضهم فيعقب هذا صاحبه كأن لهم علماً بأن عدم هذا التدبير يفسد به بيضهم .

ثم انظر إلى خلق البيضة^(٤) وما فيها من الحكم لله ففيها الماء الأصفر الخائر

(٢) تبقى البيضة في الحضن مدة ٢١ يوماً وعند درجة حرارة ٣٨ درجة . مثوية كي يتحول الجنين إلى كائن حي له كيان واضح .

(٣) يطعم فرخه وبواسطة منقاره مادة مهضومة أشبه ما تكون باللبن عند الثدييات هذا عند الحمام ، بعكس الدجاج فإن فراخها تلتقط الحب عند خروجها من البيضة .

(٤) خلق سبحانه البيض بنظام متكامل ، وجعله بقدرته مرحلة لنقل الحياة واستمرار تدفقه في

والماء والأبيض الرقيق فبعضه لينشأ منه جسده وبعضه يتغذى به إلى أن ينشق عنه وما في ذلك التدبير من الحكم العجيبة وكيف جعل معه غذاءه في بيضة مغلقة تلتقي به إلى حين كماله فيها وخروجه منها ثم انظر في حوصلة الطائر وما في خلقها من التدبير فإن مسلك طعامه إلى القانصة ضيق لا ينفذ إليه إلا قليلاً قليلاً فلو كان لا يلتقط حبة حتى تصل الأولى إلى القانصة لطال الأمر عليه مع ما فيه من شدة الحذر وتجنبه ما يؤذيه فصار ما يحتكره احتراساً لشدة حذره فجعلت له الحوصلة كالمخلاة المعلقة أمامه ليودع فيها ما أدرك من الطعام بسرعة ثم ينفذه إلى القانصة على مهل .

وفيهما حكمة أخرى فإن الطير الذي يزق أفراده يكون رده الطعام من قرب أسهل عليه ثم تأمل ريش الطائر فإنك تجده منسوجاً نسج الثوب من سلوك رفاق وفيها من اليبس ما يمسك من حولها ومن اللين ما لا تنكسر معه وهي خاوية قد ألف بعضها إلى بعض كتأليف الخيط إلى الخيط والشعر إلى الشعر ثم تجده إذا فتحته أعني النسيج يفتح قليلاً ولا ينشق ليدخله الريح فيثقله عن طيرانه وتجده في وسط الريش عموداً غليظاً يابساً مثبتاً قد نسج عليه كهيئة الشعر ليمسكه بصلابته فلو عدم ذلك وعرضت الريشة دونه لفسخها ما يقابلها من الهواء وهي مع صلابتها مجوفة ليخفف عليه طيرانه .

أنظر إلى الطائر الطويل الساقين والحكمة في طولهما أنه يرعى أكثر رعيه في صحصح كأنه فوقه مقرّب يتأمل ما يدب في الماء فإذا رأى شيئاً من حاجته خطأ خطأً رقيقاً حتى يتناولوه فلو كان قصير الساقين لكان حين يخطو إلى الصيد يصل بطنه إلى الماء فيهزه فيذعر منه الصيد فيبعد عنه . أنظر إلى العصافير وغيرها فإنها تطلب رزقها طول نهارها فلا هي تجده مجموعاً في محله وهو أمر جار على سنة الله في خلقه فإن صلاحهم في السعي في طلب الرزق فإن الطير لو وجدته ميسراً أكب عليه ولا يقلع عنه حتى يمتلىء فيثقل عن الطيران ولا يستطيع رده أعني قذفه من بطنه مثل طير الماء الكبير فإنه يأكل السمك فإذا امتلأ منه وأزعجه مزعج تقيأه حتى

عالم الطيور أو هو مخلوق كامن داخل مهد من المواد الغذائية المتكاملة اللازمة لضمان تغذية هذا المخلوق الكامن، أو المخلوق المخفي خلف حدود قدرة عيوننا، ويتكون هذا الغذاء من ماء وأصلاح وبروتينات تضمن للجنين تغذية متكاملة بالإضافة إلى نظام دقيق وحساس جداً للتنفس لحاجة الهواء الطبيعي لدورة الحياة، ولله في خلقه شؤون .

يخف للطيّان وكذلك الناس أيضاً لو وجدوه بلا سعي لتفرغوا إفراغاً يوقعهم في غاية الفساد.

أنظر إلى هذه الأصناف من الطير التي لا تخرج إلا ليلاً مثل البوم والهام والخفاش فإن عيشها يتيسر في الجو كالبعوض والفرّاش وشبهه فإنها منبثة في هذا الجو فجعل عيشه في موضع أقرب إليه من الأرض ولعل نوره لا يعينه أن يلتقط من الأرض دليل أنه لا يظهر في نور الشمس إلا مختفياً فالهم أن يعيش في الجو من الفرّاش وغيره انظر إلى الخفاش لما خلق بغير ريش كيف خلق له ما يقوم مقامه وجعل له فم وأسنان وكل ما في البهائم الأرضية من الولادة وغيرها وقدرة على الطيران فظهر سبحانه فيه أن قدرته على الطيران لا تقتصر على ما خلق له الريش ولا تنحصر في نوع واحد لأنه خلق هذا النوع وخلق من السمك جنساً يطير على وجه البحر مسافة طويلة ثم ينزل الماء فسبحان القادر العليم أنظر إلى الذكر والأنثى من الحمام كيف يتعاونان على الحضنة فإذا احتاج أحدهما إلى قوته ناب الآخر إلى آخر وقت الحضنة ثم الهمهما على الحضنة فلا يطيلان الغيبة على البيض إذا خرجا لنيل القوت حتى أنهما يجتمع في أجوافهما البراز للحرص على الرقاد فإذا اضطره خروج البراز أخرجه دفعة واحدة.

ثم انظر إلى حرص الذكر حين تحمل الأنثى بالبيض ويقرب أوان وضعها كيف يطردها وينقروها ولا يدعها تستقر خارجاً عن الوكر خشية أن تضع البيض في غير الموضع المهيأ لوضعه. أنظر كيف يزق أفرأخه ويعطف عليها ما دامت محتاجة إلى الزق حتى إذا كبرت واشتدت ولقطت واستغنت عن أبويها صارت إذا تعرضت له لنيل ما اعتادت ضربها وصرفها عن نفسه واشتغل بغيرها.

ثم انظر ما خلق الله تعالى في الكواسر من شدة الطيران حتى لا يسبق له من يطلبه ومن قوة المخلب وحدته في المنقار والأظفار فكان مخلبها مدية للقطع وكان مخلب أرجلها خطاطيف يعلق فيها اللحم حتى تحصل ما تحتاجه من قوتها.

أنظر إلى طير الماء لما جعل قوته في الماء كيف جعل فيه قوة السباحة والغطس ليأخذ من جوف الماء رزقه فجعل سبحانه وتعالى لكل صنف من الطيور ما يليق به في تحصيل قوته.

باب في حكمة خلق البهائم

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾^(١).

اعلم وفقك الله وإيانا أن الله خلق البهائم لمنافع العباد امتناناً عليهم كما نبهت على ذلك هذه الآية فخلقها الله بلحم مثبت على عظام صلبة تمسكه وعصب شديد وعروق شداد وضم بعضها إلى بعض ولم يجعلها لينة رخوة ولا صلبة كصلابة الحجارة وجعل فوق ذلك جلداً اشتمل على أبدانها كلها لتضبطها وتتقنها لأنها أريد منها القوة للعمل والحمل ثم خلفها سبحانه سمیعة بصيرة ليلبغ الإنسان حاجته منها لأنها لو كانت عمياء صماء لم ينتفع بها الإنسان ولا وصل بها إلى شيء من مآربه ثم منعت العقل والذهن حكمة من الله لتدل للإنسان فلا تمتنع عليه إذا كدها عند حاجته إلى أكداها في الطحن وحمل الأثقال عليها إلى غير ذلك.

وقد علم الله أن بالناس حاجة إلى أعمالها وهم لا يطيفون أعمالها ولا يقدرّون عليها ولو كلف العباد القيام بأعمالها لأجهدهم ذلك واستفرغ قواهم فلا

(١) سورة النحل . الآية (٨).

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده، يمتنّ به عليهم وهو ﴿الخيّل والبغال والحمير﴾ التي جعلها للركوب والزينة بها وذلك أكبر المقاصد منها، ولما فصلها من الأنعام وأفردها بالذكر. مختصر اس كثير.

يبقى فيهم فضلة لعمل شيء من الصناعات والمهن التي يخصون بعملها وخلقتهم قابلة لها ولا غنى لهم عنها وتحصيل الفضائل من العلوم والآداب ولو كان ذلك مع اتعابه لا يبدانهم يضيق عليهم معاشهم فكان قضاؤه على هذا تسخيرها لهم من النعم العظيمة أنظر في خلق أصناف من الحيوانات وتهيئتها لما فيه صلاح كل صنف منها فبنو آدم لما قدروا أن يكونوا ذوي علاج للصناعات واكتساب للعلوم وسائر الفضائل ولا غنى لهم عن البناء والحياكة والنجارة وغير ذلك خلقت لهم العقول والأذهان والفكر وخلقت لهم الأكف ذوات الأصابع ليتمكنوا من القبض على الأشياء ومحاولات الصناعات.

وآكلات اللحم لما قدر أن يكون عيشها من الصيد ولا تصلح لغيره خلقت لها مخالب وسرعة نهضة وأنياب. وآكلات النبات لما قدر أن تكون غير ذات صنعة ولا صيد خلقت لبعضها أظلاف كفتها خشونة الأرض إذا جالت في طلب المرعى ولبعضها حوافر مستديرة ذات قعر كأخمص القدمين لتنتطب على الأرض وتتهيأ للحمل والركوب.

تأمل التدبير في خلق آكلات اللحم من الحيوانات كيف خلقت ذوات أسنان حداد وأتراس شداد وأفواه واسعة وأعيت بسلاح وأدوات تنال بذلك ما تطلبه فإن ذلك كله صالح للصيد فلو كانت البهائم التي عيشها النبات ذوات مخالب وأنياب كانت قد أعطيت ما لا تحتاج إليه لأنها لا تصطاد ولا تأكل اللحم ولو كانت السباع ذوات أظلاف كانت قد منعت ما تحتاج إليه من السلاح الذي به تصطاد.

فانظر كيف أعطى سبحانه كل واحد من أصناف الحيوان ما يشاكله وما فيه صلاحه وحياته وأنظر إلى أولاد ذوات الأربع كيف يجدها تتبع الأمهات مستقلة بنفسها لا تحتاج إلى تربية وحمل كما يحتاج آدميون إذ لم يجعل في أمهاتها ما جعل في أمهات البشر من العقل والعلم والرفق في أحوال التربية والقوة عليها بالفكر والأكف والأصابع المهيأة لذلك ولغيره فلذلك أعطيت النهوض والاستقلال بأنفسها ولذلك ترى فراخ بعض الطير مثل الدجاج والدراج تدرج وتلقط عقيب خروجها من البيضة وما كان منها ضعيفاً لا نهوض له مثل فراخ الحمام واليمام جعل في الأمهات عطف عليها^(٢) فصارت ترعى الطعام في حواصلها ثم تمجه في

(٢) انظر في عطف الدحاجة على فراخها وحمايتها والفتيش عن الغذاء لها، فإذا وجدت الغذاء

أفواه فراخها ولا تزال كذلك حتى تنهض وتستقل فكل أعطى من اللطف والحكمة بقسط فسبحان المدبر الحكيم . انظر إلى قوائم الحيوان كيف ينتقل أزواجاً لتتبعاً للمشي فلو كانت أفراداً لم تصلح لذلك لأن المائي منها ينقل منها بعضه ويعينه على مشيه اعتماده على ما لم ينقله منها فذو القائمتين ينقل واحدة ويعتمد على الأخرى وذو الأربع ينقل اثنتين ويعتمد على اثنتين من خلاف^(٣) لأنه لو كان ينقل قائمتين من أحد جانبيه يعتمد على قائمتين من الجانب الآخر لم يثبت على الأرض كالسريز ولو كان يرفع يديه ويتبعها برجليه لفسد مشيه فجعل ينقل اليمنى من مقدمه على اليسرى من مؤخره ويعتمد على الآخرين من خلاف أيضاً فيثبت على الأرض ولا يسقط إذا مشى لسرعة التحاقهما فيما بين المشي والإعتماد أما ترى الحمار يذل للحمولة والطحن والفرس مبرأ منها والبعير لا تطيقه عدة رجال لو استعصى وينقاد لصبي صابر .

والثور الشديد يذعن لصاحبه حتى يضع النير على عنقه ليستحرضه والفرس تركب ويحمل عليها السيوف والأسنة في الحرب وقاية لراكبها والقطيع من الغنم يرعاها صبي واحد فلو تفرقت فأخذت كل شاة منها جهة لنفورها لتعذرت رعايتها وربما أعجزت طالبها وكذلك جميع الحيوان المسخر للإنسان وما ذلك إلا لأنها عدت العقل والتروي فكان ذلك سبباً لتذليلها فلم تلتو على أحد من الناس وإن كدها في كثير من الأحوال وكذلك السباع لو كانت ذوات عقل وروية لتواردت على الناس وأنكثهم نكاية شديدة عظيمة ولعسر زجرها ودفعها ولا سيما إذا اشتدت حاجتها في طلب قوتها ويشدت خللها ألا ترى كيف إذا أحجمت عن الخلق وصارت في أماكن خائفة تهاب مساكن الناس وتحجم عنها حتى صارت لا تظهر ولا تنبعث في طلب قوتها في غالب أحوالها إلا ليلاً فجعلها مع شدة قوتها وعظم غذائها كالخائفة من الأنس بل هي ممنوعة عنهم ولولا ذلك لساورتهم في منازلهم وضيقوا عليهم في مساكنهم .

تنادي فراخها بصوت أو صوتين، وإذا رأت خطراً عليها وعلى فراخها فإنها تطلق صوتاً ذا نغمة خاصة فتهرع الفراخ إلى أقرب ملجأ وتحتمي به .

(٣) يقصد بها، أن الحيوان ذو الأربع في سيره ينقل قائمتين، فإذا اعتمد على قائمته الأمامية اليمنى تقال له في الإعتماد قائمته الخلفية اليسرى، وبالعكس

ألا ترى الكلب وهو من بعض السباع كيف سخر في حراسة منزل صاحبه حتى صار يبذل نفسه ويترك نومه حتى لا يصل إلى صاحبه ما يؤذيه ثم أنه أعان صاحبه بقوة صوته حتى يتنبه من نومه فيدفع عن نفسه ويألفه حتى يصبر معه على الجوع والعطش والهوان والجفاء فطبع على هذه الخلال لمنفعة الإنسان في الحراسة والإصطياد ولما جعله الباري سبحانه حارساً أمدّه بسلاح وهي الأنياب والأظفار واللّهث والقوى ليدعّر به السارق والمريب وليجتنب المواضع التي تحميها ثم انظر كيف جعل ظهر الدابة سطحاً مثيراً على 'قوائم أربع لتمهيد الركوب والحمولة.

وجعل فرجها بارزاً من ورائها ليتمكن الفحل من ضربها إذ لو كان أسفل باطنها كالآدمي لم يتمكن الفحل منها. ألا ترى أنه لا يستطيع أن يأتيها كفاحاً كما يأتي الرجل المرأة فتأمل هذه الحكمة والتدبير ولما كان فرج الفيلة تحت بطنها فإذا كان وقت الضراب ارتفع وبرز للفحل حتى يتمكن من اتیانها فلما لم يخلق في الموضع المخلوق في الأنعام والبهائم خلقت فيه هذه الصفة ليقوم الأمر الذي به دوام التناسل وذلك من عظيم العبر ثم انظر كيف كسيت أجساد البهائم الشعر والوبر ليقبها ذلك الحر والبرد وغيره من الآفات وحملت قوائمها على الأظلاف والحوافر ليقبها ذلك من الحفا وما كان منها بغير ذلك جعلت له أخفاف تقوم مقام الحافر في غيره.

ولما كانت البهائم لا أذهان لها ولا كف ولا أصابع تنهياً للأعمال كفت مؤنة ما يضربها بأن جعلت كسوتها في خلقتها باقية عليها ما بقيت فلا تحتاج إلى استبدالها ولا تجديد بغيرها بخلاف الآدمي فإنه ذو فهم وتدبير وأعضاء مهيأة لأعمال ما يقترحه وله في أشغاله بذلك صلاح وفيه حكمه فإنه خلق على قابلية لفعل الخير والشر وهو إلى فعل الشر أميل منه إلى فعل الخير فجعلت الأسباب التي يحصل بها ما هو محتاج إليه ليشغل بها عما فيه فساد وهلاك دينه فإنه لو أعطى الكفاية في كل أحواله أهلكه الشر والبطر وكان من أعظم الحيوانات فساداً في الأرض ولتصرف بعقله الذي هو مخلوق لبنال به السعادة إلى ما فيه شقاوته.

ثم أن الآدمي مكرم يتخير من ضروب الملابس ما شاء فيلبس منها ما شاء ويتزين بها ويتجمل ويتلذذ منها بما يشاء ويكمل بها زينته وجماله وبهائه في عين من يصحبه ويحب قربه ويطيب بذلك رائحته وينعش نفسه وهذا من باب النعمة عليه والكرامه له بخلاف البهائم فإنها غنية عن هذا كله. انظر فيما ألهم الله البهائم

والوحوش في البراري فإنها توارى أنفسها كما يوارى الناس موتاهم فما أحس منها بالموت توارى بنفسه إلى موضع يحتجب فيه حتى يموت وإلا فأين جثث السباع والوحوش وغيرها فإنك لو طلبت منها شيئاً لم تجده وليست قليلة فيخفي أمرها لقلتها بل لو قال قائل أنها أكثر من الإنس لم يبعد لأن الصحارى قد امتلأت من سباع وضباع وبقر وحمير ووعول وإبل وخنزير وذئب وضروب من الهوام والحشرات وأصناف من الطير. وغير ذلك مما لا يحصى عدده وهذه الأصناف في كل يوم يخلق منها ويموت منها ولا يرى لها رمم موجودة والذي أجرى الله به عادته أن تكون في أماكنها فإذا أحست بالموت أتت إلى مواضع خفية فتموت فيها فانظر هذا الأمر الذي الهمة هذه الأصناف في دفن جثثها بما فطرت عليه وشخص لبني آدم بالفكر والتروي.

تأمل الدواب كيف خلقت أعينها شاخصة أمامها لتنظر ما بين يديها فلا تصدم حائطاً ولا تتردى في حفرة وإذا قربت من ذلك نفرت منه وابتعدت نفسها عنه وهي جاهلة بعاقبة ما يلحقها منه أليس الذي جبلها على ذلك أراد صلاحها وسلامتها ليتنفع بها ثم انظر إلى فمها مشقوقاً إلى أسفل الخطم لتتمكن من نيل العلف والرعي ولو جعل كفم الإنسان لم تستطع أن تتناول شيئاً من الأرض وأعينت بالجفلة لتقصم بها ما قرب منها فألهمت قصم ما فيه صلاحها وترك ما لا غذاء لها فيه ولا صلاح انظر ما كان من البهائم كيف يمزز الماء في شربه مزراً وكيف خلقت فيه شعرات حول فمه يدفع بها ما كان على وجه الماء من القذى والحشيش ويحركها تحريكاً يدفع به الكدر عن الماء حتى يشرب صفوه فتقوم لها هذه الشعرات مقام فم الإنسان.

ثم انظر إلى ذنب البهيمة وحكمته وكيف خلق كأنه غطاء في طرف شعر فمن منفعه أنه بمنزلة الغطاء على فرجها ودبرها ليسترها ومنها أن ما بين دبرها وطريق بطنها أبداً يكون فيه ضرر يجتمع بسببه الذباب والبعوض ويجتمع أيضاً على مؤخرها فأعينت على دفع ذلك بتحريك ذنبها فصار كأنه مذبة في يدها تذب بها وتطرده عنها ما يضر بها ثم أنها تعطف برأسها فتطرده به ما في مقدمها من الذباب أيضاً ثم أن الدابة أيضاً أعينت بحركة مختصة وذلك أن الذباب إذا وقع عليها في مواضع بعيدة من رأسها وذنبها حركت ذلك الموضع من جلدها تحريكاً تطرده به الذباب وغيره عنها وذلك من عجيب الحكمة فيما لا ينتفع بيدين ومن الحكمة فيه أيضاً أن الدابة

تستريح بتحريكه يمنة ويسرة لأنها لما كان قيامها على أربع اشتغلت يداها أيضاً بالحمل لبدنها والتصرف فجعل لها في تحريك ذنبها منفعة وراحة وأعينت بسرعة حركته لئلا يطول ألمها بما يعرض لها ومن الحكمة فيه أن البهيمة إذا وقعت في بركة أو مهواة أو وحلت في طين أو غيره فلا تجد شيئاً أهون على نهوضها وخلاصها منه من الرفع بذنبها ومن ذلك إذا خيف على حملها أن ينقلب على رقبتها عند هبوطها من مكان مصبوب أو ليسبقها رأسها فتتكب على وجهها فيكون مسكها بذنبها في هذه المواضع يعدلها ويعينها على اعتدال سيرها وسلامتها مما خيف منه عليها إلى غير ذلك من مصالح لا يعلمها إلا الحكيم العليم .

انظر إلى مشفر الفيل وما فيه من الحكمة والتدبير فإنه يقوم مقام اليد في تناول العلف وإيصاله إلى فمه فلولا ذلك ما اسنطاع أن يتناول شيئاً في الأرض إذ لم يجعل له عنق يمدّها كسائر الأنعام فأما عدم العنق في هذا الخلق جعل له هذا الخرطوم فيتناول به ما يحتاجه فسبحان اللطيف الخبير، انظر كيف جعل هذا الخرطوم وعاء يحمل فيه الماء إلى فمه ومنخراً ينتفس منه وآلة يحمل بها ما أراد على ظهره أو يناول من هو راكب عليه انظر إلى خلق الزرافة لما كان منشأها في رياض شاهقة خلق لها عنقاً طويلاً لتدرك فوتها من تلك الأشجار تأمل في خلق الثعلب فإنه إذا حفز له بيتاً في الأرض جعل له فوهتين أحدهما يتسرب منها والأخرى يهرب منها إن طلب ويرقق مواضع في الأرض في بيته فإن طلب من المواضع المفتوحة ضرب برأسه في المواضع التي رققها فخرج من غير المنافذ وهي المواضع التي نحتها .

انظر ما خلق الله تبارك وتعالى في جبلته لصيانته نفسه، وجملته القول في الحيوان أن الله تبارك وتعالى خلقه مختلف الطبائع والخلق فما كان منه ينتفع الناس بأكله خلق فيه الإتياد والتذلل وجعل قوته النبات وما جعل منه للحمل جعله هادئ الطبع قليل الغضب منقاداً منفعلاً على صور يتهياً منه الحمل وما كان منه ذا غضب وشر إلا أنه قابل للتنظيم إذا نظم خلق فيه هذا القبول ليستعين العباد بصيده وحراسته وأعين بالآلات قد تقدم ذكرها ومن جملة ذلك الفيل فإنه ذو فهم مخصوص به وهو قابل للتأنس والتعلم فيستعان به في الحمل والحروب ومنها ما له غضب وشر إلا أنه متأنس بالإنسان لمنفعته كالهرة ومن الطير ما للناس به انتفاع^(٤) لما فيه من

(٤) خلق سبحانه الطير لمنافع الإنسان، فبالإضافة إلى أن لحمه غذاء مهماً للإنسان، فإن بيضه

الألفة والتأنس فمن ذلك الحمام يألف موضعه فتنتقل بسببه الأخبار بسرعة إذا دعت حاجة إلى ذلك. وجعله الله سبحانه كثير النسل فيكون منه طعام ينتفع به ومن ذلك البازي فإن طباعه تنتقل إلى التأنس وإن كان في طبعه مبايناً إلا أنه لما علم الله أنه ينتفع بصيده جعل فيه القبول للتنظيم حتى خرج عن عادته وبقي يعمل ما يوافق أصحابه وقت الصيد وما خفي من الحكم في خلق الله تعالى أكثر مما علم.

وخاصة الدجاج من أهم نعم الله على عباده، فهو كغذاء مصدر بروتيني نقي، والبيضة تأتينا صافية نقية متقنة أيما إتقان، مخلقة بطهارة ونقاء وصفاء لم تمسها يد ولم تختلط بها ملوثات من مواد كيميائية أو غازات، وبها من الأحماض الأمينية والبروتينات تشكيلة بديعة متكاملة.

باب في حكمة خلق النمل والنمل والعنكبوت ودود القز والذباب وغير ذلك

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلَكُمْ مَا
فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾^(١).

انظر إلى النمل وما ألهمت له في أحشادها في جمع قوتها وتعاونها على ذلك وإعداده لوقت عجزها عن الخروج والتصرف بسبب حر أو برد وألهمت في قلب ذلك من الحزم ما لم يكن عند من يعرف العواقب حتى تراها في ذلك إذا عجز بعضها عن حمل ما يحمله أو جهد به أعانة آخر فيه فصارت متعاونة^(٢) على النقل

(١) سورة الأنعام: الآية (٣٨)

﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾، قال مجاهد: أي أصناف مصنفة تعرف بأسمائها، وقال قتادة: الطير أمة والإنس أمة، والجن أمة، وقال السدي: ﴿إلا أمم أمثالكم﴾: أي خلق أمثالكم. وقوله تعالى: ﴿وما فرطنا في الكتاب من شيء﴾. أي الجميع علمهم عند الله ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وتديره سواء كان برياً أو بحرياً، كقوله: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾. أي مفصّل بأسمائها، وأعدادها، ومكانها، وحاصر لحركاتها وسكناتها، وقوله: ﴿ثم إلى ربهم يحشرون﴾. عن ابن عباس قال: حشرها الموت، (والقول الثاني). إن حشرها هو بعثها يوم القيامة، لقوله تعالى: ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾. ابن كثير.

(٢) النمل، وبحكمة وتدير من الله تعالى بحاجة إلى أن يجمع قوته ويعدده لوقت عجزه، وبما

كما يتعاون الناس على العمل الذي لا يتم إلا بالتعاون ثم أنها ألهمت حفر بيوت في الأرض تبتدىء في ذلك بإخراج ترابها وتقصد إلى الحب الذي منه قوتها فتقسمه خشية أن ينبت بنداوة الأرض فمن خلق هذا في جبلتها إلا الرحمن الرحيم ثم إذا أصاب الحب بلل أخرجه فنشرته حتى يجف ثم أنها لا تتخذ البيوت إلا فيما علا من الأرض خوفاً من السيل أن يغرقها ثم أنظر إلى النحل وما ألهمت إليه من العجائب والحكم فإن الباري سبحانه جعل لها رئيساً تتبعه^(٣) وتهتدي به فيما تناله من أقواتها فإن ظهر مع الرئيس الذي تتبعه رئيس آخر من جنسه قتل أحدهما الآخر وذلك لمصلحة ظاهرة وهو خوف الإفتراق لأنهما إذا كانا أميرين وسلك كل واحد منهما فجاً افترق النحل خلفهما ثم أنها ألهمت أن ترعى رطوبات من أعلى الأزهار فتستحيل في أجوافها عسلاً فعلم من هذا التسخير ما فيه من مصالح العباد من شراب فيه شفاء للناس كما أخبر سبحانه وتعالى وفيه غذاء وملاذ للعباد وفيه من أقوات فضلات عظيمة جعلت لمنافع بني آدم فهي مثل ما يفضل من اللبن الذي خلق لمصالح أولاد البهائم وأقواتها وما فضل من ذلك ففيه من البركة والكثرة ما ينتفع به الناس .

ثم انظر ما تحمله النحل من الشمع بأرجلها لتوعي فيه العسل وتحفظه فلا تكاد تجد وعاء أحفظ للعسل من الشمع في الإجناح فانظر في هذه النحلة هل في علمها وقدرتها جمع الشمع مع العسل أو عندها من المعرفة بحيث ربت حفظ العسل مدة طويلة باستقراره في الشمع وصيانتها في الجبال والشجر في المواضع التي تحفظه ولا يفسد فيها ثم انظر لخروجها نهاراً لرعيها ورجوعها عشية إلى أماكنها وقد حملت ما يقوم بقوتها ويفضل عنها ولها في ترتيب بيوتها من الحكمة في بنائها حافظ لما تلقيه من أجوافها من العسل ولها جهة أخرى تجعل فيها برازها مباعداً عن مواضع العسل . وفيها غير هذا مما انفرد الله بعلمه .

أن بعض الحبوب أكبر وأثقل من النملة كان لا بد من تعاونها، وهذه أهم صفاتها، حتى أصبح تعاون النمل وصبره مضرباً للأمثال ؛ وقصص التاريخ والعبر والأمثال كثيراً ما نسمعها في حياتنا العملية .

(٣) يقصد بها ملكة النحل التي تحكم مملكتها حكماً أديباً ودباً، لا قهر فيه ولا تسلط وشعبها يتحلّى صفات لا مثيل لها، فهو شعب نشيط لا يعرف الكسل متفان في الطاعة . وتتألف مملكة النحل هذه من ملكة واحدة وعدة مئات من اليعاسيب (الذكور) وعدد كبير من العاملات يتراوح بين (٣٠ - ٨٠) ألفاً وقد يزيد عددها أحياناً عن ١٠٠ ألف عاملة .

انظر إلى العنكبوت وما خلق فيها من الحكمة فإن الله خلق في جسدها رطوبة تنسج منها بيتاً لتسكنه وشركاً لصيدها فهو مخلوق من جسدها وجعل الله غذاءها من أقواتها ينصرف إلى تقويم جسدها وإلى خلق تلك الرطوبة المذكورة فتنبه أهداً مثل الشرك وفي ركن الشرك بيتها وتمكن في بيتها بحيث يغيب شخصها والشرك من خيوط رفاق تلتف على أرجل الذباب والناموس وما أشبه ذلك فإذا أحست أن شيئاً من ذلك وقع في شركها خرجت إليه بسرعة وأخذته محتاطة عليه ورجعت إلى بيتها فتقاتت بما يتيسر لها من رطوبة تلك الحيوانات وإن كانت مستغنية في ذلك الوقت شكلته وتركته إلى وقت حاجتها فانظر ما جعل الله فيها من الأسباب لحصول قوتها فبلغت في ذلك ما يبلغه الإنسان بالفكرة والحيلة كل ذلك لصالحها ولنيل قوتها ولتعلم أن الله هو المدبر لهذا.

ثم انظر من العجائب دود القز وما خلق فيه من الأشياء التي يتحير منها ويذكر الله عند رؤيتها فإن هذا الدود خلق لمجرد مصلحة الإنسان ومنافعه فإن هذا الحيوان الذي يخلق من جسمه الحرير وذلك أن صورة البزر تحضن حتى إذا حمى عاد دوداً كالذر فيوضع هذا الدود على ورق التوت فيتغذى منه فلا يزال يرفع منه حتى يحفر جسمه فينبعث إلى غزل جوز الحرير فلا يزال كذلك حتى يفنى جسمه وتعود جوزة حرير ويصير هو جسماً ميتاً لا حياة فيه.

ثم انظر فإن الباري سبحانه لما أراد حفظ هذا الجنس بقاء نسله فعندما ينتهي من غزل الحرير ويبقى ذلك الجسم يقلبه الله إلى صورة طائر صغير قريب من صورة النحل فيجمع على بساط أو غيره وهو في رأى العين جنس واحد لا يتميز منه الذكر من الأنثى فيعلو الذكر منه على ظهر الأنثى ويقيم لحظة على ظهرها فتحبل لوقتها وتلد لوقتها مثل ذلك البزر الذي حضن أولاً ثم يطير فيذهب فلا يبقى بها انتفاع إذ قد حصل منها المقصود وهو ذلك البزر.

فانظر من ألهمها الرعي من ذلك الورق حتى ترتبت منه ومن ألهمها إلى غزل أجسادها حريراً حتى يعني بما غزلته ومن ربي لها أجنحة وقلب صورتها حتى صارت على هيئة يمكن فيها اجتماع الذكر والأنثى لتناسلها ولو بقيت على صورتها الأولى لم يأت منها تناسل ولا هذا الاجتماع ثم انظر ما يسره الباري سبحانه من عمل ما غزلته هذه الدودة على من يعمل من بني آدم حتى يكون منه أموال كثيرة وملابس عظيمة وزينة وانظر هذا التسخير العجيب في هذا الحيوان اللطيف وما

أظهر فيه سبحانه من بديع الصنع وعجيب الفعل وعظيم الاعتبار وما جعل فيه من البرهان والآيات على بعث الأموات وإعادة العظام الرفات سبحانه لا إله إلا هو العلي العظيم.

ثم انظر الذبابة وما أعينت به في نيل قوتها فإنها خلقت بأجنحة تسرع بها إلى موضع تنال فيه قوتها وتهرب بها عما يهلكها ويضرها وخلق لها ستة أرجل تعتمد على أربع وتفضل اثنتين فإن أصابها عثار مسحته بالرجلين اللتين تليهما وذلك لركة أجنحتها ولأن عينيها لم يخلق لها أهداب لأنهما بارزتان عن رأسها وجعل هذا الحيوان وما جرى مجراه مما يتعلق ببني آدم ويقع عليهم دائماً وينغص عليهم عيشهم ليعرفهم الباري سبحانه هو أن الدنيا حتى تصغر عندهم ويهون أمر فراقها وهو وجه من وجوه الحكمة عليهم تأمل كثيراً من الحيوان الصغير عند تلمسه يعود كأنه جماد لا حراك به ويبقى على ذلك ساعة ثم يتحرك ويمشي وهل ذلك إلا لأن يصطاد إذا دلت هيئته على عدم حياته فإذا كان شبيهاً بالجماد ترك كما تترك سائر الحجارة.

تأمل العقاب عندما يصطاد السلحفاة يجدها كأنها حجر ولا يجد فيها موضعاً لأكله فيصعد بها في مخالبه حتى إذا بعد من الأرض اعتدل بها على جبل أو حجارة وأرسلها فتهشمها الوقعة فيسقط عليها فيأكلها فانظر كيف ألهم الطريق في نيل قوته من غير عقل ولا روية انظر إلى الغراب لما كان مكروهاً خلق في طبعه الحذر لصيانة نفسه حتى كان يعلم الغيب فيمن يقصده والهم الإحتيال في إخفاء عشه لصون فراخه وقل احتفاله بالأنثى خشية أن تشغله عن شدة حذره ولذلك قل أن يرى مجتمعاً مع أنثى فهذا أبداً دأبه وحاله مع من له عقل وفطنة وتراه مع البهائم على خلاف ذلك فيقف على ظهورها ويأكل من دم البعير ومن أوراث الدواب وقت تبرزها وإذا وجد شيئاً من قوته وأكل منه وشبع دفن باقيته حتى يعاوده وقتاً آخر فمن خلق هذا في طبعه ودبره بهذا التدبير العجيب إلا الله لأنه لا عقل له ولا روية. أنظر إلى الحداة لما كانت مكروهة حفظت نفسها بقوة طيرانها وتعاليتها وحفظت في أمر قوتها بقوة بصرها فإنها ترى ما تقتات به في الأرض مع علوها في الجو فتتحط نحوه بسرعة وألهمت معرفة من هو مقبل ومن هو مدبر فتخطف ما تحفظه من الناس من ورائهم ولا تخطف مما يستقبلها لئلا بمنعها المستقبل يديه وأعينت لما كان غذاؤها من هذه الوجوه بأن جعلت لها مخالب كأنهم السنابير لا يكاد يسقط منها ما ترفعه

فسبحان المدبر الحكيم .

انظر إلى الحيوان المسمى حرباء وما فيه من التدبير فإنه لما خلق بطيئاً في نهضته وكان لا بد له من قوته فخلق على صورة عجيبة فخلقت عيناه تدور لكل جهة من الجهات حتى تدرك صيده من غير حركة في جسده ولا قصد إليه ويبقى جامداً كأنه ليس من الحيوان ثم أعطى مع السكون أن يتشكل في لون الشجرة التي يكون عليها حتى يكاد يختلط لونه بلونها ثم إذا قرب منه ما يصطاده من ذباب أو غيره أخرج لسانه فيخطف ذلك بسرعة خفوق البرق ثم يعود على حالته كأنه جزء من الشجرة وجعل الله لسانه بخلاف المعتاد ليلحق به ما بعد عنه بثلاثة أشبار أو نحوه فقد سخر له ما يصطاد به على هذه المسافة وإذا رأى ما يريعه ويخيفه تشكل على هيئة وشكل ينفر منه من يصطاده من الحيوان ويكرهه فانظر هذه التي خلقت فيه لأجل قلة نهضته فأعين بها . انظر إلى الحيوان الذي يسمى سبع الذباب وما أعطي من الحيلة والرفق فيما يقتات به فإنك تجده يحس الذباب قد وقع قريباً منه فيركد ملياً حتى كأنه ميت أو جماد لا حراك به فإذا أحس أن الذباب قد أطمأن دب ديباً رقيقاً حتى لا ينفره حتى إذا صار قريباً منه بحيث يناله بوثة وثب عليه فأخذه فإذا أخذه اشتمل عليه بجسده كله خشية أن يتخلص منه الذباب فلا يزال قابضاً عليه حتى يحس ببطلان حركته فيقبل عليه فيتغذى منه بما يلائمه منه فانظر إلى هذه الحيلة أهي من فعله أو هي مخلوقة من أجل رزقه فسبحان الباري الحكيم . انظر إلى الذر البعوض^(٤) الذي أوهن الله قوتها وأصغر قدرها وضرب بها المثل في كتابه تجدد فيها نقصاً عما فيه صلاحها من جناح تطير به ورجل تعتمد عليها وبصر تقصد به موضعاً تنال فيه قوتها وآلة لهضم غذائها وإخراج فضلته وانظر هل يمكن أن يعيش من غير قوت وهل يمكن أن يكون القوت في غير محل واحد وأخرجه فضلته من غير منفذ .

(٤) البعوض من فصيلة الذباب، والإناث فقط منه تمتص الدم في حين أن الذكور تمتص رحيق الأزهار .

ثم انظر كيف دبرها العزيز الحكيم فسواها وقدر أعضائها واستودعها العلم والمعرفة بمنافعها ومضارها^(٥) وكله دليل على علمه وقدرته وحكمته البالغة فهي بعوضة صغرت في النظر ومع هذا فلو أن أهل السموات والأرض من الملائكة فمن دونهم من العالمين وسائر الخلق أجمعين أرادوا أن يعرفوا كيف قسم الخالق سبحانه أجزاءها وحسن اعتدال صورتها في أعضائها لما قدروا على ذلك إلا تظاهرا لمنظر العجز منهم على عدم حقيقة الخبر ولو اجتمعوا ثم تفكروا كيف ركبت معرفتها حتى عرفت أن ما بين الجلد واللحم دماً وهو الذي هو غذاؤها ولولا معرفتها به لم تقدم على مصه حتى تطعمه وكيف همته التي قصدت بها أن تطير إلى الموضع الذي ألهمها ربها أن فيه غذاها وكيف خرق سمعها وكيف سمعت حس من يقصدها وكيف عرفت أن نجاتها في الفرار إذا ولت هاربة ممن قصدها فلن يدرك ذلك منها الخلائق أجمعون ولو جزؤها ما إزدادوا في أمرها إلا عمى وبعداً عن المعرفة فهذه الحكمة والقدرة في بعوضة فما ظنك بجميع مخلوقاته سبحانه وتعالى علواً كبيراً.

(٥) من مضاره أن لسعة البعوض تسبب التهابات جلدية حادة وتورمات في المناطق المصابة، كما يساهم بنقل كثير من الأمراض الفتاكة مثل: الملاريا والحمى الصفراء، وحمى الدنج وداء الفيل.

باب في حكمة خلق السمك وما تضمن خلقها من الحكم

قال الله تعالى :

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾^(١).

انظر واعتبر بما خلق الله تعالى في البحار والأنهار من الحيوان المختلف الصور والأشكال وما فيه من الآيات. البينات فإنه تعالى لما جعل مسكنه في الماء لم يخلق له قوائم ولم يخلق فيه رئة لأنه لا يتنفس وهو منغمس في لجة الماء وخلقت له مكان القوائم أجنحة شداد يحركها من جانبه فيسير بها حيث شاء وكسا جلده كسوة متداخلة صلبة تخالف لحمه متراصة كأنها درع لتقيه ما يعمد إليه وما يؤذيه وما لم يخلق له من السمك تلك الكسوة وهي القشر المتداخل المخلوق على ظاهره خلق له جلداً غليظاً متقناً يقوم له مقام تلك الكسوة لغيره وخلق له بصراً وسمعاً وشماً ليستعين بذلك على نيل قوته والهرب مما يؤذيه .

وانظر كيف أعطى في قعر البحر ما يناسبه في نيل القوت والهرب مما يضره ولما علم الله سبحانه أن بعضه غذاء لبعض كثره وجعل أكثر أصنافه يحمل ولم يجعل الحمل منه مخصصاً بالأنثى دون الذكر كحيوان البر بل جعل الذكر والأنثى

(١) سورة الحل . الآية (١٤)

يخر تعالى . عن تسحيه البحر المتلاطم الأمواج ، ويمتن على عساده سدليه لهم وتيسيرهم للركوب فيه ، وما يخلقه فيه من اللاليء والجواهر النفيسة . مختصر ابن كثير

جنساً واحداً يخلق في بطونها مرة واحدة في وقت معلوم ذريعة مجتمعة مشتملة على عدد لا ينحصر فيخلق من جوف واحدة عدداً لا يحصى وذلك من كل بذرة حوتاً من الجنس ومن جنس آخر يخلق في الأنهار وغيرها بغير توالد فيخلق منها أعداداً لا تحصر دفعة واحدة ومنه صنف يتوالد بالذكر والأنثى وهذا الجنس يخلق له يدان ورجلان مثل السلحفاة والتمساح وما شاكلهما فيتولد منها بيض تفقص البيض بحرارة الشمس خرج من كل بيضة واحدة من الجنس ولما علم الله سبحانه وتعالى أن السمك في البحر لا يمكن أن يحضن ما يخرج من بزره ألقى الروح في بزر جميعه عندما يولد فيجد فيه جميع ما يحتاجه من الأعضاء عند إلقاء الروح فيه فيستقل ولا يفتقر إلى أحد في كمال خلقه فانظر هذه الحكمة واللفظ حيث لم يمكن حضانتها في البحر ولا تربيته ولا معونته البتة جعله مستقلاً بنفسه مستعيناً عن ذلك كله ثم أن الله سبحانه كثره لأن منه قوت جنسه^(٢) وقوتاً لبني آدم والطير فلذلك كان كثيراً ثم أنظر إلى سرعة حركته وإن لم تكن له آلة كغيره من الحيوان وانظر إلى حركة ذنبه وانقسامه وكيف يعتدل بذلك في سيره كما تعتدل السفينة برجلها في سيرها وخلقت أرياشه ألواحاً من جانبيه ليعتدل بهما أيضاً في سيره فهو بمنزلة المركب.

وانظر إلى عظامه كيف خلقت مثل العمود يبنى عليها ففي كل موضع منه ما يليق به من صورة العظم المشاكل لذلك العضو فهو كإنشاء المركب يمتد العظم الجافي الذي هو قوته ويخرج من أضلاع إلى مرق البطن والظهر وعظام الرأس يحتاج إليه من الأمر وبه قوامه وانظر إلى ما كان منه كاسراً كيف أعين على نيل قوته بصلاية اللحم وقوة النهضة وكثرة الأسنان حتى أنه لكثرة أسنانه تكون العضة الواحدة تجزيه عن المضغ.

انظر إلى ما خلق الله في البحر ضعيفاً قليل الحركة مثل أصناف الصدف والحلزوني كيف حفظ بأن خلق عليه ذلك الحصن الذي هو صلب كالرخام ليصونه ويحفظه وجعله له بيتاً وسكناً وجعل ما يلي جسده ناعماً أنعم ما يكون وربما ضربت بعض أصناف الحلزون حتى لا يكون فيه مطمع البتة وأصناف منه خلقت في محائر مفتوحة لا يمكن صيانتها لنفسها لتغلقها ولا يضيق مسلكها فجعل الله لها من الجبال

(٢) يقصد أن السمك الكبير يأكل السمك الصغير الصغير.

والحجارة مغطاً وجعل لها أسباباً تلتصق بها في الجبل فلا يستطيع إخراجها إلا بغاية الجهد وجعل لها قوتاً من رطوبات الجبل تتأتى حياتها بذلك وأما الحلزون الذي بيته كأنه كوكب فإنه يخرج رأسه يرعى فإذا أحسّ بما يؤذيه أدخل رأسه في بيته وختم عليه بطابع صلب يقرب من صلابة بيته فيغيب أثره بالجملة.

فانظر هذا اللطف وإن الله لم يهمل شيئاً واعلم أن الله حافظ لما في البحار وما في الآكام والجبال فتبارك الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وانظر إلى أنواع من السمك يرعى قرب البر الصغير منها والجافي في الأعماق وقد خلق الله في جوفه صبغاً كأنه حبر وهو يخلق له فيه من فضله غذاء كما يخلق اللبن في الضرع فإذا أحسّ بما يؤذيه أخرج من جوفه ما يعكر موضعه ثم يذهب في الماء الذي تغير فلا يعرف كيف ذهب ولا كيف طريقه من تغير الماء فعل الله ذلك له وقاية لنفسه وفعل فيه مصالح أخر لا يعلمها إلا خالقها.

انظر إلى نوع آخر من السمك أعين بأجنحة مثل أجنحة الخفاش ينتقل بها عند وقوع الأنواء من موضع إلى موضع في الهواء من وجه الماء^(٣) يظهر لمن لا يعرف ذلك أنه من طيور البر. انظر إلى نوع آخر من أنواع السمك ضعيف وكثيراً ما يكون في الأنهار وجعل الله فيه خاصية تصونه إذا اقتربت منه تأخذه وفيه الروح تخدر البدن واليد فيعجز قاصده عن أخذه بذلك السبب فلو ملئت الكتب بعجائب حكم الله في خلق واحد لإمتلأت الكتب وعجز البشر عن استكمالها وما هو المذكور في كل نوع تنبيهه إلى أمر عظيم.

(٣) وهناك الدلفين الذي يصعد إلى سطح الماء للتنفس مرة كل (٤ - ٦) دقائق، وحتى إذا كانت نائمة فإنها تتحرك بصورة لا إرادية إلى السطح للتنفس، ويضطرب بعض أنواع الدلافين - مثل دلفين «أنف الزجاجة» للتنفس مرة كل ٢٠ ثانية. وهناك أنواع أخر تتمكن من حبس أنفاسها مدة تصل إلى ٣٠ دقيقة أحياناً.

باب في حكمة خلق النبات وما فيه من عجائب حكمة الله تعالى

قال الله تعالى :

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ يَعْزِزْهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (١).

انظر وفقك الله وسددك إلى ما على وجه الأرض من النبات وما في نظره من النعيم في حسن منظره وبهجته ونضارته التي لا يعدلها شيء من مناظر الأرض .

ثم انظر إلى ما جعل الباري فيه من ضروب المنافع والمطاعم والروائح والمآرب التي لا تحصى وخلق فيه الحب والنوى مخلوقاً لحفظ أنواع النبات وجعل الثمار للغذاء والتفكه والأتبان منها للعلف والرعي والحطب للوقود والأخشاب للعمارة وإنشاء السفن ولغير ذلك من الأعمال التي يطول تعدادها والورق والأزهار والأصول والعروق والفروع والصمغ لضروب المصالح لا تحصى أرايت لو وجدت الثمار مجموعة من الأرض ولم تكن تنبت على هذه السوق الحاملة لها ما كان يحصل من الخلل في عدم الأخشاب والحطاب والأتبان وسائر المنافع وإن وجد

(١) سورة المل: الآية (٦٠)

راجع: باب في خلق النبات وما فيه من عجائب.

الغذاء بالثمرات والتفكه بها^(٢).

ثم انظر ما جعل الله فيها من البركات حتى صارت الحبة الواحدة تخلف مائة حبة وأكثر من ذلك وأقل والحكمة في زيادتها وبركتها حصول الأقيات وما فضل ادخر للأمور المهمة والزراعات وذلك في المثال كملك أراد عمارة بلدة فأعطى أهلها من البذور ما يبذرونه وفضله يتقوتون بها إذا أدرك زرعهم.

فهذه هي الحكمة التي عمّ الله بها البلاد وأصلح بها العباد وكذلك الشجرة والنخل تزكو وتتضاعف ثمراتها حتى تكون من الحبة الواحدة الشيء العظيم ليكون فيه ما يأكله العباد ويصرفونه في مآربهم ويفضل ما يدخر ويغرس فيدوم جنسه ويؤمن انقطاعه ولولا نموه وبقاء ما يخلفه لكان ما أصابته جائحة ينقطع فلا يوجد ما يخلف.

تأمل في هذه الحبوب فإنها تخرج في أوعية تشبه الخرائط لتصونها وتحفظها إلى أن تشتد وتستحكم كما تخلق البشيمة على الجنين فأما البزر وما أشبهه من الحبوب فإنه يخرج من قشور صلبة على رؤوسها أمثال الأسنة ليمنع من الطير فانظر كيف حصنت الحيوانات بهذه الحصون وحجبت لئلا يتمكن الطير منها فيصيب بها وإن كان يناله منها قوته إلا أن حاجة الأدمي أشد وأولى. تأمل الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات فإنها لما كانت محتاجة إلى الغذاء الدائم كحاجة الحيوانات ولم يخلق فيها حركات تنبعث بها ولا آلات توصل إليها غذاءها جعلت أصولها مركوزة^(٣) في الأرض لتجذب الماء من الأرض فتغذي بها أصولها وما علا من الأغصان والأوراق والثمار فصارت الأرض كالأم المربية لها وصارت أصولها وعروقها كالأفواه الملتقمة لها وكأنها ترضع لتبلغ منها الغذاء كما ترضع أصناف الحيوان من أمهاتها ألم تر إلى عمد الخيم والفسطاط كيف يمتد بالأطناب من كل جانب ليثبت منصبته فلا يسقط ولا يميل فهكذا أمر النبات كله له عروق منتشرة في

(٢) سخر الله سبحانه كل شيء (من نبات وحيوان وماء) لخدمة الإنسان أفضل مخلوقاته على الأرض وجعل لكل شيء سبب منفعة.

(٣) ثبت بالتجربة العلمية: أننا لو وضعنا نبتة صغيرة في وضع معكوس (الجزر إلى أعلى والساق في الأرض) لشاهدنا أن الجذور تنحني نحو الأرض (موطنها الأصلي) بينما الساق تنحني وتنمو إلى أعلى. (مجلة الأمة - العدد مايو ١٩٨٣).

الأرض ممتدة إلى كل جانب وتمسكه وتقيمه ولولا ذلك لم تثبت الأشجار العالية لا سيما في الرياح العاصفة فانظر إلى حكمة الخالق كيف سبقت حكمة الصناعة واقتدى الناس في أعمالهم بحكمة الله في مصنوعاته .

وتأمل خلق الورق فإنك ترى في الورقة شبه العروق مبنوثة فمنها غلاظ ممتدة في طولها وعرضها ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجاً دقيقاً عجيباً لو كان مما يصنع بأيدي البشر لما فرغ من ورق شجرة واحدة إلا في مدة طويلة وكان يحتاج فيه إلى آلات وطول علاج فانظر كيف يخرج منه في المدة القليلة ما يملأ السهل والجبال وبقاع الأرض بغير آلة ولا حركة إلا قدرة الباري وإرادته وحكمه .

ثم انظر تلك العروق كيف تتخلل الورق بأسره لتسقيه وتوصل إليه المادة وهي بمنزلة العروق المبنوثة في بدن الإنسان لتوصل الغذاء إلى كل عضو منه وأما ما غلظ من العروق فإنها تمسك الورق بصلابتها وقوتها لئلا يتهتك ويتمزق ثم انظر إلى العجم والنوى والعله فيه فإنه جعل في جوف الشمرة ليقوم مقامه إذا عدم ما يغرس أو عاقه سبب فصار ذلك الشيء النفيس الذي يخزن في مواضع شتى لعظم الحاجة إليه فإن حدث على الذي في بعض المواضع حادث وجد منه في موضع آخر ثم في صلابته يمسك رخاوة الثمار ورقتها ولولاه لسرحت وسرح الفساد إليها قبل إدراكها وفي بعضها حب يؤكل وينتفع بدهنه ويستعمل في مصالح .

ثم انظر إلى ما خلق الله تعالى فوق النواة من الرطب وفوق العجم من العنبه والهيئة التي تخرج عليها وما في ذلك من الطعم واللذة والإستمتاع للعباد . ثم تأمل خلق الحب والنوى وما أودع فيه من قوة وعجائب كالمودع في الماء الذي يخلق منه الحيوان وهو سر لا يعلم حقيقته إلا الله سبحانه وما علم من ذلك يطول شرحه .

ثم انظر كيف حفظ الحب والنوى بصلاية وخلقت في ظاهره قشرة حتى أنه بسبب ذلك أن سقط في تراب أو غيره لا يفسد سريعاً وإذا ادخر لوقت الزراعة بقي محفوظاً فصار قشره الخارج حافظاً لما في باطنه بمنزلة شيء نفيس عمل له صندوق يحفظه وعندما يوضع في الأرض ويسقي يخرج منه عرق في النوى وغصن في الهواء وكلما ازداد غصناً ازداد عرقاً تتقوى به أصل الشجرة وينصرف الغذاء منه إلى الغصن فهي كذلك إذ يتم غصنها قوتها فتكون الفروع محفوظة عن السقوط بالهوى والإنكسار بالنقل أو بغيره ويصعد الماء في جذرها إلى أعالي الشجرة فيقسمه الله

سبحانه بالقسط وميزان الحق فينصرف للورق غذاء^(٤) صالح له وللعروق المشتكة في الأوراق لإتصال الغذاء إلى جوانب الورق ما يليق بغذائها وللثمار غذاء صالح لها وللإقماع واللحا والأزهار غذاء صالح لكل من ذلك ما يليق به ويصلحه فهو كذلك حتى يكمل في الثمار نموها وطعمها ورائحتها وألوانها المختلفة وحلاوتها وطيبها.

ثم انظر كيف جعل الله سبحانه خروج الأوراق سابقاً لخروج الثمار لأن الثمرة ضعيفة عند خروجها تتضرر بحر الشمس وبرد الهواء فكانت الأوراق ساترة لها وصار ما بينها من الفرج لدخول أجزاء من الشمس والهواء لا غنى للثمرة عنها فيحفظها ذلك من المن والعفن وغير ذلك من الفساد.

ثم انظر كيف رتب الباري سبحانه الأشجار والثمار والأزهار وجعلها مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح فأشكالها ما بين طويل وقصير وجليل وحقير وألوانها ما بين أحمر وأبيض وأصفر وأخضر ثم كل لون منها مختلف إلى شديد وصاف ومتوسط وطعومها ما بين حلو وحامض ومر وروائحها إلى عطرات لذيات مختلفات وقد أوضح الكتاب العزيز من ذلك ما ذكرناه بما يشرح الصدر ويكشف للمتأمل منه كل مستور فانظر ما أودع الباري سبحانه فيها من السر عند النظر إليها فإنها تجلي عن القلوب درنها عند مشاهدتها وتنشرح الصدور برؤيتها وتنشع النفوس لرونق بهجتها وأودع الله سبحانه فيها منافع لا تحصي مختلفة التأثير فمنها ما تقوى به القلوب ومنها أغذية تحفظ الحياة وجعلها مطعومة لذيدة عند تناولها وخلق فيها بزوراً لحفظ نوعها تزرع عند جفافها وانفصال وقت نضارتها انظر وتأمل ما في قوله عز وجل:

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْأَكِلِينَ﴾^(٥).

(٤) للأوراق دور كبير في تغذية النبات والحفاظ عليها، فهي تنقل بواسطة عروقها العصارة المغذية للنبات، وفي لونها الأخضر تتكون أكبر عملية كيميائية والتي تعرف (بالحليل الكلوروفيلي).

(٥) سورة المؤمنون: الآية (٢٠)
يذكر تعالى نعمه على عبده، وقوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ يعني الزيتون، والطور هو الجبل، وقال بعضهم إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجرة، فإن عري عنها سمي

فاخرج سبحانه فيما بين الحجر والماء زيتاً صافياً لذيذاً نافعاً كما أخرج اللبن من بين فرث ودم ومن أخرج من النحل شراباً عسلاً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس ولو جمعت هذه الأشياء في مستقر لكانت مثل الأنهار وكل ذلك لمنافع العباد فانظر ما فيه من العبرة لذوي الأفكار ثم انظر إلى الماء الصاعد من العروق الراسخة الحافظة للأعلى من الشجرة وكيف قسم الباري في غذاء النخلة فقسم للجبذر ما يصلح لها وللجريد وما فيه من السل ما يصلح لها ويناسب جريدها ويرسل للثمرة ما يليق بها، وكذلك اللب الحافظ للأصول مع الثمرة وجعل الثمرة لما كانت ضعيفة في أول أمرها متراسة متراكمة بعضها فوق بعض مجموعة في غلاف متقن يحفظها مما يفسدها ويغيرها حتى إذا قويت صلحت أن تبرز للشمس والهواء فانشق عنها غلافها على التدريج وهو الذي كان حافظاً لها فيصير يفترق شيئاً بعد شيء على قدر ما تتحمله الثمرة من الهواء والشمس حتى تكمل قوتها فتظهر جميعها حتى ما يضر بها ما يلحقها من حر وبرد ثم تراها في النضج والطيب إلى بلوغ الغاية المقصودة منها. فيلتذ حينئذٍ بأكلها ويمكن الانتفاع بإدخالها وتصرف في المآرب التي هيئت لها اعتبر ذلك في جميع الأشجار فإنك ترى فيها من أسباب الحفظ ولطائف الصنع ما يعتبر به كل ذي فهم ولب. فمن ذلك خلق الرمانة وما فيها من غرائب التدبير فإنك ترى فيها شحماً مركوماً في نواصيها غليظ الأسفل رقيق الأعلـا كماثال التلال في تلونه أو البناء الذي وسع أسفله للإستقرار ورقق أعلاه حتى صار مرصوفاً رصفاً كأنه منضد بالأيدي بل تعجز الأيدي عن ذلك التداخل الذي نظم حبها في الشحم المذكور. وتراه مقسوماً أقساماً وكل قسم منه مقسوم بلفائف رقيقة منسوجة أعجب نسج وألطفه لتحجب حبها حتى لا يلتقي بعضه ببعض فيفسد ولا يلحق البلوغ والنهاية وعليها قشر غليظ يجمع ذلك كله ومن حكمة هذه الصنعة أن حبها لو كان حشوها منه صرفاً بغير حواجز لم يمد بعضه بعضاً في الغذاء فجعل ذلك الشحم خلالة ليمده بالغذاء ألا ترى أصول الحب كيف هي مركوزة في ذلك

جبلًا لا طوراً والله أعلم. ﴿وطور سيناء﴾ هو طور سين، أو هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون وقوله: ﴿تنتب بالدهن﴾، أي تنتب الدهن، كما في قول العرب: ألقى فلان بيده أي يده. ولهذا قال: ﴿وصبغ﴾ أي آدم، قال قتادة ﴿للاكليين﴾ أي فيها ما ينتفع به من الدهن والإصطباغ، قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة». مختصر ابن كثير.

الشحم ممدودة منه بعروق رقاق توصل إلى الحب غذاءها وإلى كل حبة غذاءها ومن رقتها وضعفها لا تكدر على الأكل ولا تعرف بها. ثم انظر ما يصير من الحلاوة في الحب من أصول مرة شديدة المرارة قابضة ثم تلك اللفائف على الحب تمسكه عن الإضطراب ويحفظه ثم حفظ الجميع وغشاه بقشر صلب شديد القبض والمرارة وقاية له من الآفات.

فإن هذا النوع من النبات للعباد به انتفاعات وهو ما بين غذاء ودواء وتدعو الحاجة إليه في غير زمانه الذي يجني فيه من شجره فحفظ على هذه الصفة لذلك. انظر إلى عود الرمان الذي هي متعلقة به كيف خلق مثبثاً متقناً حتى تستكمل خلقها فلا تسقط قبل بلوغها الغاية المحتاج إليها وهي من الثمرة المختصة بالإنسان دون غيره من الحيوان. انظر إلى النبات الممتد على وجه الأرض مثل البطيخ واليقطين وما أشبه ذلك وما فيه من التدبير فإنه لما كان عود هذا النبات رقيقاً رياناً ذا احتياج إلى الماء لا ينبت إلا به جعل ما ينبت به منبسطاً على وجه الأرض فلو كان منتصباً قائماً كغيره من الشجر لما استطاع حمل هذه الثمار مع طراوة عودها ولينها فكانت تسقط قبل بلوغها وبلوغ غايتها فهي تمتد على وجه الأرض لبلوغ الغاية وتحمل الأرض عودها وأصل الشجرة والسقي يمدّها.

وانظر هذه الأصناف كيف لا تخلق إلا في الزمن الصالح لها ولمن تناولها فهي له معونة عند الحاجة إليها ولو أتت في زمان البرد لنفرت النفوس عنها ولأضرت بأكثر من يأكلها ثم انظر إلى النخل لما كانت الأنثى منه تحتاج إلى التلقيح فيها الذكر الذي تحتاج إليه لذلك حتى صار الذكر في النخل كأنه الذكر في الحيوان وذلك ليتم خلق ما بزراعته تحفظ أصول هذا النوع.

ثم انظر ما في النبات من العقاقير النافعة البديعة فواحد يغور في البدن فيستخرج الفضلات الغليظة وآخر لإخراج المرة السوداء وآخر للبلغم وآخر للصفراء وآخر لتصريف الريح وآخر لروائحته وآخر للمرضى والضعفاء وكل ذلك من الماء فسبحان من دبر ملكه بأحسن التدبير.

باب ما تستشعر به القلوب من العظمة لعلام النيوب

قال الله العظيم :

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾^(١).

وقال تعالى :

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾^(٢).

(١) سورة الإسراء : الآية (٤٤).

يقول تعالى تقدسه السماوات السبع والأرض ومن فيهن، أي من المخلوقات وتنزهه وتعظمه وتجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالواحدانية في ربوبته وإلهيته : ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد كما قال تعالى : ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا، أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾. وقوله : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾. أي لا تفهمون تسبيحهم لأنها بخلاف لغاتكم، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات. . وقوله : ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾. أي أنه لا يعالج من عصاه بالعقوبة بل يؤجله وينظره، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر. . مختصر ابن كثير.

(٢) سورة الشورى : الآية (٥).

وقال تعالى :

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ (٣).

اعلم وفقنا الله وإياك أن جميع ما تقدم ذكره في هذا الكتاب من بدائع الخلق وعجائب الصنع وما ظهر في مخلوقاته من الحكم آيات بينات وبراهين واضحة ودلائل دالات على جلال باريها وقدرته ونفوذ مشيئته وظهور عظمته فإنك إذا نظرت إلى ما هو أدنى إليك وهي نفسك رأيت فيها من العجائب والآيات ما سبق التنبيه عليه وأعظم منه ثم أنك إذا نظرت إلى مستقرك وهي الأرض وأجلت فكرك فيها وأطلت النظر في استرسال ذهنك فيما جعل فيها وعليها من جبال شامخات وما أحيط بها من بحار زاخرات وما جرى فيها من الأنهار وما أنبت فيها من أصناف النباتات والأشجار وما بث فيها من الدواب إلى غير ذلك مما يعتبر به أولو الأبواب .

ثم إذا نظرت إلى سعتها وبعد أكنافها وعلمت عجز الخلائق عن الإحاطة بجميع جهاتها وأطرافها ثم نظرت فيما ذكرته العلماء من نسبة هذا الخلق العظيم إلى السماء وأن الأرض وما فيها بالنسبة إلى السماء كحلقة ملقاة في أرض فلاة وما ذكره النظار من أن الشمس في قدرها تزيد على قدر الأرض مائة ونيفاً وستين جزءاً وإن من الكواكب ما يزيد عن الأرض مائة مرة .

ثم أنك ترى هذه النيرات كلها من شمس وقمر ونجوم قد حوتها السموات وهي مركوزة فيها ففكر في السماء الحاوية لهذا القدر العظيم كيف يكون قدرها ثم أنظر كيف ترى الشمس والقمر والنجوم والسماء والجامعة لذلك في حدقة عينيك مع صغرها وبهذا يعرف بعد هذا كله منك وعظم ارتقائه ولأجل البعد ترى هذه النيرات صغيرة في رأى العين ثم انظر إلى عظم حركتها وأنت تحس بها ولا تدركها لبعدها .

(٣) سورة الرعد: الآية (١٣).

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ كقوله: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ . وكان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: «اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك» . وعن عبد الله بن ابن الزبير أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث . وقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا لوعيد شديد لأهل الأرض، وروي الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله، فإنه لا يصيب ذاكراً» مختصر ابن كثير

ثم أنك لا تشك أن الفلك يسير في لحظة قدر كوكب فيكون سيره في لحظة قدر الأرض مائة مرة وأكثر من ذلك وأنت غافل عن ذلك .

ثم فكر في عظم قدر هذه الأشياء واسمع قسم الرب سبحانه بها في مواضع من الكتاب العزيز فقال عز وجل :

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾^(٤) * ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾^(٥) .

وقال :

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْجِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾^(٦) .

إلى غير ذلك من الآيات ثم ترق بنظرك إلى ما حواه العالم العلوي من الملائكة وما فيها من الخلق العظيم وما أخبر به جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن اسرافيل عليه السلام بقول جبريل فكيف لو رأيت اسرافيل وإن العرش لعلى كاهله وإن رجله لفي تخوم الأرض السفلى وأعظم من هذا كله قوله عز وجل :

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾^(٧) .

فما ظنك بمخلوق وسع هذا الأمر العظيم فارفع نظرك إلى باري الكون

(٤) سورة البروج : الآية (١) .

(٥) سورة الطارق : الآية (١ ، ٢ ، ٣) .

(٦) سورة الواقعة : الآيتان (٧٥ ، ٧٦) .

(٧) سورة البقرة : الآية (٢٥٥) .

قوله تعالى : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ . عن ابن عباس قال . علمه . وقال آخرون الكرسي موضع القدمين . عن ابن عباس قال : سئل النبي ﷺ عن قول الله عز وجل ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ قال : «كرسيه موضع قدميه ، والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل» . وقال السدي : الكرسي تحت العرش . وقال الصحاك عن ابن عباس : لو أدار السموات السبع والأرضين السبع سطر ثم وصلن بعضهن إلى بعض ما كن في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازة . قال رسول الله ﷺ : «ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس» قال ، قال أبو ذر . سمعت رسول الله ﷺ يقول : «مد الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهرائي فلاة من الأرض . مخصر ابن كثير

العظيم واستدل بهذا الخالق العظيم وعلى جلاله وقدرته وعلمه ونفوذ مشيئته واتقان حكمته في بريته .

وانظر كيف جميع هذا الصنع العظيم ممسوك بغير عمد ثقله ولا علائق من فوقه ترفعه وتثبته فمن نظر في ملكوت السموات والأرض ونظر في ذلك بعقله ولبه استفاد بذلك المعرفة بربه والتعظيم لأمره وليس للمتفكرين إلى غير ذلك سبيل وكلما ردد العقل الموفق النظر والتفكر في عجائب الصنع وبدائع الخلق ازداد معرفة ويقيناً وإذعاناً لبارئه وتعظيماً ثم الخلق في ذلك متفاوتون لكل مثال من ذلك على حسب ما وهبه له من نور العقل ونور الهداية وأعظم شيء موصل إلى هذه الفوائد المشار إليها تلاوة الكتاب العزيز وتفهم ما ورد فيه وتدبر آياته مع ملازمة تقوى الله سبحانه فهذا هو باب المعرفة بالله واليقين بما عند الله .

ثم انظر وتأمل ما نشير إليه فإنك علمت على الجملة أن رسول الله ﷺ أسرى به إلى أن بلغ المنتهى ورأى من آيات ربه الكبرى وأطلع على ملكوت ربه وتحقق أمر الآخرة والأولى ودنى من ربه حتى كان كقاب قوسين أو أدنى فما ظنك بعلم من شرف بهذا المعنى ثم أمر بأن يقول:

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^(٨) .

وعلمك بمعرفته ومنّ عليك بنور هدايته واستعملنا وإياك بطاعته وجعلنا بكرمه أجمعين من أهل ولايته بمنه وكرمه وجوده أنه وليّ ذلك .

تم كتاب الحكمة في مخلوقات الله عز وجل
سبحانه وتعالى والحمد لله رب العالمين
وصلّى الله على سيدنا محمد النبي
الأمي وعلى آله وصحبه
وسلم

(٨) سورة طه : الآية (١١٤)

فهرس الموضوعات

الفهرس

الموضوع ..	الصفحة
ترجمة المؤلف ..	٥
مقدمة الدار ..	١٣
باب التفكير في خلق السماء وما في هذا العالم ..	١٥
باب في حكمة الشمس ..	١٩
باب في خلقه القمر والكواكب ..	٢٣
باب في حكمة خلق الأرض ..	٢٧
باب في حكمة خلق البحر ..	٣٣
باب في حكمة خلق الماء ..	٣٧
باب في حكمة خلق الهواء ..	٤١
باب في حكمة خلق النار ..	٤٥
باب في حكمة خلق الإنسان ..	٤٩
باب في حكمة خلق الطير ..	٧١
باب في حكمة خلق البهائم ..	٧٧
باب في حكمة خلق النحل والنمل والعنكبوت	
ودود القز والذباب وغير ذلك ..	٨٥
باب في حكمة خلق السمك	
وما تضمن خلقها من الحكم	٩١
باب في حكمة خلق النبات	
وما فيه من عجائب حكمة الله تعالى	٩٥
باب ما تستشعر به القلوب	
من العظمة لعلام الغيوب	١٠١
فهرس الموضوعات ...	١٠٥

